وفاء المسلمين

لقد كان بنو قريظة ، وهم سكّان المنطقة التى كان يسكنها المصطفى ﷺ والمهاجرون والأنصار ، على علم تامّ بجدّ المسلمين وصدقهم مع أعدائهم وأصدقائهم على السواء . وخير شاهد على جدّ المسلمين المصير الأليم الّذى انتهى إليه بنو جلدتهم الّذين خانوا الله تعالى ورسوله ، وبخاصّة بنو النضير الّذين تمّ إجلاؤهم جزاء خيانتهم . وخير دليل على صدق المسلمين وفاؤهم مع الّذين يفون لهم . فهذا زعيم بنى قريظة كعب بن أسد، يجيء على لسانه أكثر من مرّة،وهو يخاطب حُيَيّ بن أخطب النضرى الّذى أغراه بنقض العهد ، بأنه لم ير من محمّد إلاّ وفاء وصدقا[1] وإنّ بنى قريظة لم يقدموا على نقض العهد مع المصطفى ﷺ ، إلاّ وقد اعتقدوا أنهم آمنون من المصير الّذى انتهى إليه الخونة السابقون من أقوامهم . ولا يعتقد مثل ذلك الأمن الّذى يترتب عليه الغدر، إلاّ في حالة الاعتقاد بأنّ المسلمين، بقيادة المصطفى ﷺ قد وقع لهم الاستئصال الّذى جاء النّصّ عليه فى حديث حيّى بن أخطب ، وهو يغرى بنى قريظة بنقض العهد مع محمّد ﷺ : « ويحك يا كعب : جئتك بعزّ الدّهر وببحر طام . جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة.وبغطفان على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتها بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألاّ يبرحوا حتى نستأصل محمّداً ومن معه »[2] .

لقد كان بنو قريظة بحكم سكناهم فى المنطقة وكونهم أهل كتاب ، على علم تامّ ، بكون تعاليم الإسلام صارمة فى حملها المسلمين على ألاّ يوادّوا من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم . وقد ثبت لهم أنّ أوّل

---

(١) السّيرة النبوية ٢٣٦/٣ (عبد الحميد) .

(٢) السّيرة النبوية ٢٣٦/٣ (عبد الحميد) .

معركة سافرة فاصلة بين المسملين وسواهم ، كان الطّرف الثّانى المناوىء للإسلام متمثلا فى كفّار قريش قوم المصطفى ﷺ . وقد ثبت لهؤلاء اليهود فى معركة بدر أنّ رباط الدّين حلّ محل كلّ رباط آخر ، وفى مقدمتها رباط القرابة . فكنّت فى هذه المعركة الفريدة فى التاريخ تجد الابن يقاتل أباه الكافر ، والأب يقاتل ابنه الكافر . والأخ يقاتل أخاه الكافر وهكذا . إن بنى قريظة لو كانو يفقهون ، لتنبّهوا إلى هذه الصّرامة فى تعاليم الإسلام . ومن ذلك كونه ﷺ يعاتبه ربّ العزة على قبوله الفداء من أسرى بدر ، بدلا من أن يضرب أعناقهم وهم الّذين حادوّا الله تعالى ورسوله الكريم . فقد جاء فى سورة الأنفال[1] قوله تعالى : **﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . تريدون عَرَض الدّنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذ تم عذاب عظيم﴾** أكان بنو قريظة يظنون أنهم فى مُنجاة من انتقام الله تعالى ، وهم على علم تامّ بما أنزل الله تعالى من عقاب أليم بالوثنيين الّذين ساعدهم اليهود على استمرارهم فى الضلال المبين ، بقولهم إنّ دينهم هو الحقّ ! أو كان اليهود يظنون أنّ العقاب خاص بالوثنيين الّذين ليس لهم ما لليهود من علاقة بتعاليم السّماء على نحو من الأنحاء ، أمّا هم فبمنجى منه ، وهم الذين يجدون وصف المصطفى ﷺ ، الّذى أمروا باتّباعه فى كتبهم المقدسة ، ويعرفون هذه الحقيقة جيّدًا ، ومن ذلك ما جاء على لسان زعيمهم كعب ابن أسد القرظى فى قوله مخاطبا قومه وقد جهدهم حصار المصطفى ﷺ ، عارضا عليهم خلالا ثلاثا كى يختاروا واحدة منها[2] : « قال : نتابع هذا الرّجل ونصدّقه . فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مُرْسل . وإنّه للذّى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم » ولا ينبغى أن نغفل عن إصرار اليهود على رفض تطبيق تعاليم التوراة ذاتها الّتى تأمرهم باتّباع النبى محمّد بن عبد الله ﷺ ، فى الوقت الّذى يجىء فيه على لسانهم[3] : « لا نفارق حكم التّوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره » ولا ينبغى أن ننسى الآيات الكثيرة جدا التى نزلت فى هؤلاء القوم ، بقصد حملهم على اتّباع هذا الرّسول الكريم . والمعروف أنّ قليلا منهم هم الّذين

---

(١) الآية ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) السّيرة النبوية ٣/٢٥٤ (عبد الحميد) .

(٣) السّيرة النبوية ٣/٢٥٤ (عبد الحميد) .

اتبعوا الحقّ بعد أن وضح لهم . ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[٣] الّذى نزل فيه وفى أمثاله كمخيريق الّذى استشهد يوم أحد[٢] قوله تعالى من سورة آل عمران[٣] : **ليسو سواءً ، من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه . والله عليم بالمتقين** والمعروف أنّ عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة تسعة وثلاثون رجلاً[٤] أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده فى الصّحابة عن ابن عبّاس قال : لمّا أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبد ومن أسلم من يهود معهم ، فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمّد واتّبعه إلاّ أشرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره . فأنزل الله فى ذلك : **ليسوا سواءً من أهل الكتاب** الآية[٥] .

إنّ شيئاً ممّا حدث للآخرين لم يخف على بنى قريظة ولكنهم كانوا واثقين من أنّ نهاية محمّد ﷺ والمسلمين قد حانت . وما الّذى يمنعهم من المشاركة فى قتل محمّد ﷺ وهم الّذين لهم التّاريخ الطويل فى قتلهم الأنبياء بغير حقّ[٦] .

بنو قريظة يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض

وبنو قريظة الّذين يقرّون عدم مفارقة حكم التّوراة أبدا ، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . إنّ ما وافق هواهم آمنوا به ، وإن لم يوافق هواهم لا يؤمنون به أو يتجاهلونه . إنّ التّوراة تأمرهم باتّباع الرّسول النبى الأمى . ومع ذلك هم فى مجموعهم يصرّون على الكفر والطغيان . ثمّ هم على علم تامّ بحكم التّوراة فى الخصوم ، وبخاصّة إذا كانوا غادرين خائنين ناقضين للعهود والمواثيق . ومع ذلك هم

---

(١) السّيرة النبوية ٥١٦/١ (حلبى .
(٢) السّيرة النبوية ٥١٨/١ (حلبى) .
(٣) الآيات ١١٣ - ١١٥ .
(٤) السّيرة النبوية للندوى ص ١٦١ هامش رقم (١) .
(٥) لباب النقول ص ٥٦ .
(٦) انظر على سبيل المثال الآية رقم ٦١ و ٩١ من سورة البقرة والآية ١١٢ ، ١٨٣ من سورة آل عمران والآية ٧٠ من سورة المائدة .

يتغافلون عن حكم التّوراة الّذى يصحّ أن يطبّق عليهم ، وينفذ فى حقّهم ، فى حالة انتصار المسلمين عليهم – يقول أبو الحسن الندوى معلقا على ما نال قريظة جزاء نقضهم للعهد مع النبى ﷺ[1] وقد وافق ذلك قانون الحرب فى شريعة بنى إسرائيل . فقد جاء فى سفر التثنية الإصحاح العشرون (١٠ – ١١ – ١٢ – ١٣) « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصّلح فإن أجابتك إلى الصّلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، وتستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفع الرّبّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأمّا النسّاء والأطفال والبهائم وكلّ ما فى المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الّتى أعطاك الرّب إلهك .

وهذه كانت العادة المتبعة فى بنى إسرائيل فى عهد أنبيائهم ، فقد جاء فى التوراة : فتجندوا على مديان كما أمر الرّبّ . وقتلوا كلّ ذكر . وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم . أوى ، وراقم ، وصور ، وحور ، ورابع خمسة ملوك مديان . وبلعام ابن باعور قتلوه بالسيف . وسبى بنو إسرائيل نساء كلّ مديان وأطفالهم ، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكلّ أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار (سفر العدد ، الإصحاح الحادى والثلاثون ٧ – ١٠) .

وذلك فى عهد موسى عليه السلام ، وبموافقة منه . وقد جاء فى التوراة : فخرج موسى والعازار الكاهن ، وكلّ رؤساء الجماعة لاستقبالهم إلى خارج المحلّة . فسخط موسى على وكلاء الجيش ، رؤساء الألوف ، ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب وقال لهم موسى : هل أبقيتم كلّ أنثى حيّة (سفر العدد الإصحاح الحادى والثلاثون ١٣ – ١٦) أ.هـ

إنّ بنى قريظة يعرفون حكم التّوراة فى الخصوم ، ذلك الحكم الّذى يصحّ أن يطبق فى حقهم ، خاصة وهم على علم تامّ بأنّ أحكام التوراة تطبق عليهم فى الحدود كالزّنا مثلا . وإنهم وراء ذلك على علم تامّ بالمصير الّذى من الجائز أن ينتهوا إليه فيما لو فرض أن عادت قريش وغطفان دون أن يصيبوا محمّداً ﷺ والمسلمين . وإليك الدليل فى هذا النصّ من السّيرة النبوية[2] : « فلم يزل حيىّ بكعب يفتله فى

---

(١) السّيرة النبوية للندوى ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) ٢٣٧/٣ (عبد الحميد) .

الذروة والغارب[1] حتّى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّداً ان أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ » .

ما حل ببنى قريظة قدر الله عليهم

إنّ العقاب الّذى حلّ بينى قريظة عقاباً لهم على غدرهم وخيانتهم ، إنّما هو قدر الله تعالى عليهم ، حيث كان المسلمون بقيادة المصطفى ﷺ وسيلة تحقيقه . وقد عرفنا حكم التّوراة فى الخصوم . وفى إمكاننا أن نتدبّر هذا المعنى فى قوله تعالى من سورة الأحزاب[2] : ﴿ **وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً . وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الّذى أنزل بنى قريظة من حصونهم وقذف فى قلوبهم الرّعب حتّى أمكن منهم المسلمين يقتلون بإرادة الله تعالى وإذنه فريقا منهم ويأسرون فريقا . وأورثهم أرضهم وديارهم والأرض الّتى لم يطأها المسلمون من قبل وهى أرض خيبر[3] الّتى وعد اليهود بإعطاء ثمرها لعام واحد مقابل خروجها مع قريش بقصد استئصال محمّد ﷺ وأصحابه . ونعتقد أنّ بنى قريظة يعرفون جيّداً أنّ ما حصل من قبل لبنى النضير ولقريش إنّما هو بإرادة الله تعالى . فقد جاء فى صدر سورة الحشر أو سورة بنى النضير[4] قوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما فى السماوات وما فى والأرض وهو العزيز الحكيم . هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين**

---

(١) الذروة والغارب أعلى ظهر البعير . فإن البعير إذا نفر وشرد من صاحبه واستعصى عليه أخذ يمسح يده على أعلى ظهره حتى يسكن ويطمئن إليه ويستأنس به فيجعل الخطام على رأسه . أراد أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرا .

(٢) الآيات ٢٥ - ٢٧ .

(٣) السّيرة النبوية ٢٧١/٣ (عبد الحميد) .

(٤) الآيات ١ - ٤ .

فاعتبروا يا أولى والأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الأخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإنّ الله شديد العقاب ﴾ لقد كان بنو قريظة أولى النّاس بالإفادة من قوله تعالى : ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ ولكن ربّ العزة يصف فى السورة ذاتها القوم بأنهم لا يعقلون ، وبأنهم ، هم والّذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ، أداة طيعة فى يد الشّيطان الرّجيم . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلاّ فى قرى محصّنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الّذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله ربّ العالمين . فكان عاقبتهما أنّهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾** .

وإنّ النصوص التالية المقتبسة تعمق الحقيقة القائمة من كون ما حلّ ببنى قريظة إنّما هو قدر الله تعالى عليهم . وعلى حدّ قول حيّى بن أخطب وقد خاطب النّاس قبيل ضرب عنقه[2] : « أيّها النّاس . إنّه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل » جاء فى صحيح البخارى[3] عن عائشة رضى الله عنها قالت . لما رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه السّلام فقال : قد وضعت السّلاح . والله ما وضعناه فاخرج إليهم . قال : فإلى أين ؟ قال : هاهنا وأشار إلى بنى قريظة . فخرج النبى ﷺ . وجاء فيه[4] عن أنس رضى الله عنه قال : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غَنْم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة.وجاء فيه[5] عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : لا يصلين أحد العصر إلاّ فى بنى قريظة . « وقد رأى رسول الله ﷺ أنّ مباغتة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدّتهم ويقوّوا حصونهم هو الواجب الأوّل فى تلك السّاعة فلا ينبغى أن ينشغل المسلم عنه ولو

---

(١) سورة الحشر ١٤ - ١٧ .
(٢) السّيرة النبوية ٣/٢٦٠ (عبد الحميد) .
(٣) ١٤٢/٥ .
(٤) صحيح البخارى ١٤٣/٥ .
(٥) صحيح البخارى ١٤٣/٥ .

بالصّلاة »[1] .

وجاء فى سيرة ابن هشام[2] قال ابن إسحاق : ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ، والمسلمون وضعوا السّلاح . فلما كانت الظهر أتى جبريل عليه السّلام رسول الله ﷺ كما حدّثنى الزّهرى معتجرا[3] بعمامة من استبرق ، على بغلة عليها رحالة[4] عليها قطيفة من ديباج فقال : أوَقد وضعْت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم . فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السّلاح بعد . وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم . إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك يا محمّد بالمسير إلى بنى قريظة فإنّى عامد إليهم فمزلزل بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذّنا فأذن فى الناس : من كان سامعاً مطيعا فلايصلين العصر إلاّ ببنى قريظة . وجاء فى صحيح البخارى[5] أنّ رسول الله ﷺ بعد أن أصدر سعد بن معاذ حكمه فى بنى قريظة قال : قضيت بحكم الله . وربما قال : بحكم الملك . وجاء فى السّيرة النبوية[6] أنّ رسول الله ﷺ قال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[7] .

وممّا هو فى حكم الدّليل على كون ما حلّ ببنى قريظة إنّما هو قضاء الله تعالى وقدره أنّ بنى قريظة بعد أن نكثوا العهد مع رسول الله ﷺ وأراد التثبت من غدرهم فأرسل أربعة من الأشخاص منهم سيد الخزرج سعد بن عبادة ، وسيّد الأوس سعد ابن معاذ ، فإنّ بنى قريظة يدخلون مع هؤلاء الرّجال ، وبخاصة سعد بن معاذ فى مشاتمة . حتى إنّ سعد بن عبادة يقول لسعد بن معاذ : إنّ ما بيننا وبينهم أكبر من المشاتمة . ومَنْ سعد بن معاذ هذا ؟ إنّه سيد الأوس ، حلفاء بنى قريظة التقليديين فى الجاهلية ، وأرأف الأقوام فى تلك الأنحاء ببنى قريظة . وليس ذلك فحسب . بل إنّ الإرادة الإلهية تشاء أن يصيب سعد بن معاذ سهم فى موقعة الأحزاب ذاتها ، من قبل

---

(١) فقه السيرة ص ٣٣٧ محمد الغزالى .
(٢) ٢٥٢/٣ (عبد الحميد) .
(٣) الاعتجار : أن يتعمم الرّجل دون أن يلتحى .
(٤) الرّحالة بكسر الرّاء من بعض مراكب الإبل وهى السرج أيضاً .
(٥) ١٤٣/٥ .
(٦) ٢٥٩/٣ (عبد الحميد) .
(٧) الأرقعة هنا السماوات . واحدها رقيع . وسميت بذلك لأنّ بعضها كان يرقع بعضا .

حبّان بن قيس بن العَرِقة[1] فيقطع منه الأكحل،والمعروف أنّ الأكحل حينما يقطع لا يعيش الإنسان . وحينما طلب الأوس من المصطفى ﷺ وقد نزلت بنو قريظة على حكمه أن يهبهم إيّاهم لأنهم حلفاؤهم التقليديون ، أسوة بهبته ﷺ بنى قينقاع وقد نزلوا على حكمه إلى عبد الله بن أبى وهو من الخزرج حلفاء بنى قينقاع التقليديين ، سأل المصطفى ﷺ الأوس : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . لقد عرفنا الحال الّتى يحياها سعد ابن معاذ هو والمسلمون بسبب تحزب الأحزاب وغدر بنى قريظة ، كما عرفنا السّهم الّذى قطع أكحله فى هذه الموقعة الّتى كان اليهود السَّبب المباشر فيها ، هذا إلى غدر بنى قريظة . ولازال سعد رضى الله تعالى عنه يعيش أوار معركة الخندق الّتى انتهت بفضل الله تعالى لتوّها . وكان حنقه رضى الله تعالى عنه على بنى قريظة شديدا . لدرجة أنّه وقد أيقن الموت كان يتوجه إلى الله تعالى بهذا القول[2] : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فإنّه لا قوم أحبّ إلىّ أنّ أجاهدهم من قوم آذو رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة . ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة»

فهذا سعد بن معاذ سيّد الأوس الّذين كانوا قبل الإسلام الحلفاء التقليديين لبنى قريظة فى أوقات الشدّة يدعو الله تعالى أن يقر عينه من بنى قريظة . وإليك هذا النصّ من السيرة النبوية الّذى يميل إلى الطّول النسبى والّذى يصوّر نزول بنى قريظة على حكمه بعد أن حاصرهم شهرا أو خمسا وعشرين ليلة[3] حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرّعب حتّى نزول حكم سعد بن معاذ عليهم ، وتصريح المصطفى ﷺ بأن سعدا قد حكم فيهم بحكم الله تعالى . وهذا هو النّص[4] :

» فلمّا أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله صلّى الله عليك وسلّم: إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت. وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا

---

(١) السّيرة النبوية ٣/٢٤٤ (عبد الحميد) .
(٢) السّيرة النبوية ٣/٢٤٤ (عبد الحميد) .
(٣) الكامل لابن الأثير ٢/١٨٥ .
(٤) السّيرة النبوية ٣/٢٥٧ - ٢٥٩ (عبد الحميد) .

حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله إيّاهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول فوهبهم له . فلمّا كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ . وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رُفَيْدة فى مسجده ، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه فى خيمة رفيدة حتّى أعوده من قريب . فلمّا حكّمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم . وكان رجلا جسيما جميلا . ثمّ أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليك فإنّ رسول الله ﷺ إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم . فلمّا أكثروا عليه قال : قد أنى لسعد ألاّ تأخذه فى الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل اليهم سعد ،عن كلمته التى سمع منه . لمّا انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين . قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم . فأمّا المهاجرون من قريش فيقولون : إنّما أراد رسول الله ﷺ الأنصار . وأمّا الأنصار فيقولون : قد عمّ بها رسول الله ﷺ المسلمين فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو ، إنّ رسول الله ﷺ قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إنّ الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا نعم . قال : وعلى من ههنا ؟ فى النّاحية الّتى فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له . فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال سعد : فإنّى أحكم فيهم أن تقتل الرّجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنّساء .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثى قال : قال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » .

وممّا هو دليل على أن ما حلّ ببنى قريظة قضاء الله تعالى وقدره عليهم هو أنهم وقد جهدهم الحصار ، أصرّوا على عدم اتّباع الرّسول الكريم مع علمهم بأنّه رسول الله ﷺ الّذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة . فهذا كعب بن أسد يخاطب قومه

بنى قريظة بعد أن جهدهم الحصار وإيقانهم أنّ رسول الله ﷺ غير منصرف حتى يناجزهم[1] : يا معشر يهود . قد نزل بكم من الأمر ما ترون . وإنّى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيّها شئتم قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرّجل ونصدّقه ، فوالله لقد تبين لكم إنّه لنبى مُرْسَل . وإنّه للذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التّوزاة أبدا ، ولا نستبدل به غيره »والمعروف أنّ نفرا من اليهود قد أسلموا الليلة التى نزل فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ : قال ابن إسحاق : ثمّ إنّ ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ، وهم نفر من بنى هَدَل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عمّ القوم، أسلموا تلك اللّيلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ[2] بل إنّ المصطفى ﷺ ليهب إحدى خالاته دم رفاعة بن سموأل القرظى أحد رجال بنى قريظة . فقد روى « أنّ سلمى بنت قيس أمّ المنذر ، أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلّت معه القبلتين ، وبايعته بيعة النّساء ، سألته رفاعة بن سموأل القرظىّ ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذبها ، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت : يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، هب لى رفاعة ، فإنه قد زعم أنّه سيصلى ويأكل لحم الجمل . قال : فوهبه لها فاستحيته »[3] بل إنّ المصطفى ﷺ يهب لثابت بن قيس بن الشمّاس دم الزبير ابن باطا القرظى الّذى كان قدمنّ عليه فى بعاث ، ويهب له أمرأته وولده وماله . ولكنّ الزّبير بن باطا القرظى يصرّ على أن يلحق برجال بنى قريظة فتحقق رغبته . قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كلّ من أنبت منهم[4] .

المسلمون يجزون الأوفياء من بنى قريظة خيراً

فى أثناء حصار بنى قريظة ، سمح المسلمون لليهود الّذين رفضوا الغدر برسول الله ﷺ أيّام الأحزاب أن يخرجوا فجزوهم عن وفائهم خيرا ، وخلوا سبيلهم ينطلقون

---

(١) السّيرة النبوية ٣/٢٥٤ (عبد الحميد) .
(٢) السّيرة النبوية ٣/٢٥٦ (عبد الحميد) .
(٣) السّيرة النبوية ٣/٢٦٣ (عبدالحميد) .
(٤) السّيرة النبوية ٣/٢٦٣ (عبد الحميد) .

حيث يبغون[1] جاء فى السّيرة النبوية[2] : « وخرج فى تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظى فمرّ بحرس رسول الله ﷺ ، وعليه محمّد بن مسلمة تلك الليلة ، فلمّا رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سُعْدى . وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ وقال : لا أغدر بمحمّد أبدا . فقال محمّد بن مسلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ثمّ خلّى سبيله . فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة . ثمّ ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا » .

ضرب أعناق رجال بنى قريظة

قال ابن إسحاق : ثمّ استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار . ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة الّتى هى سوقها اليوم . فخندق بها خنادق ثمّ بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج بهم أرسالا[3] وفيهم عدوّ الله حيىّ بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة . والمكثر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة[4] .

وقد جاء فى سورة الأحزاب بشأن قتل المقاتلة وأسر سواهم قوله تعالى[5] : ﴿ **فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ .

ونحن نودّ أن نناقش الأعداد الّتى جاءتْ فى هذا النص ، إذ المعروف أنّ ممّا يلاحظ على المؤرخين المسلمين تسامحهم بشأن الأرقام ومبالغتهم المعتادة فى الأعداد ، وكأنها لديهم لا تكاد تعنى شيئاً ذا بال . وفيما يتصل بالأعداد الّتى يذكرها المؤرخون المسلمون بشأن بنى قريظة ، فالملاحظ أنّه بسبب عدم تسجيل أسماء القرظيين أو بسبب عدم معرفة أسمائهم ، كان عددهم مظنة تقدير هؤلاء

---

(١) فقه السيرة ص ٣٤٠ .

(٢) ٢٥٦/٣ (عبد الحميد) .

(٣) أرسالا : طائفة بعد طائفة .

(٤) السّيرة النبوية ٢٥٩/٣ (عبد الحميد) وانظر الكامل لابن الأثير ١٨٦/٢ فأكثر العدد عنده ثمانمائة .

(٥) سورة الأحزاب ٢٦ .

المؤرّخين الّذين يميلون إلى التّهويل . وإنّ هذه الأعداد التى ترتبط بهذا النّصّ مثلاً والتى تتراوح بين الستمائمة والتسعمائة ، هل المقصود أنّ كلّ بنى قريظة رجالٌ ونساءً كبارا وصغار ، يتراوح عددهم بين الستمائة والتسعمائة ؟ إنّ هذا نفسه إن كان هو المقصود فهو محل نظر لأنّ النّصّ ذاته يقول : إنّ المصطفى ﷺ حبسهم بالمدينة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار . وإنا لنتساءل : أين هى الدّار الواحدة ، التّابعة لرجل واحد فضلا عن امرأة تتسع فى المدينة المنوّرة آنذاك لمثل هذا العدد من النّاس بل نصفه ؟ أين هى الدّار التى تتسع آنذاك لثلاثمائة شخص فضلا عن ستمائة ؟ إنّ مثل هذه الملاحظة تبين لنا أنّ عدد الأشخاص القرظيين البالغين الّذين قضى الله تعالى عليهم بالقتل على يد المصطفى ﷺ كفاء غدرهم لم يكن بالعدد الكبير . يقول ابن كثير فى تفسيره[1] : « وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة . فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطّرق يقضين حاجتهن » .

درس قاس لبنى قريظة ذو فوائد

« وكان ما عامل به رسول الله ﷺ بنى قريظة ، ممّا اقتضته سياسة الحرب وطبيعة القبائل العربية واليهودية ، وكان لابد من عقوبة صارمة تكون درسا للعابثين بالعهود والمحالفات ، ونكالا لما بين يديها وما خلفها . يقول ر.ف.س بودلى R.V.C. BODLEY فى كتابه حياة محمّد الرّسول : كان محمّد وحيدا فى بلاد العرب . وكانت هذه البلاد من حيث المساحة ثلث الولايات المتحدة الأمريكية . وكان عدد النفوس فيها يبلغ خمسة ملايين نفس .. ولم يكن عنده من الجيوش الّتى تحمل النّاس على امتثال أمره ، إلا الجيش الّذى لا يزيد على ثلاثة آلاف جندى . ولم يكن هذا الجيش مسلحا تسليحا كاملا . فإذا وهن محمد فى هذه القضية أو ترك جريمة غدر بنى قريظة من غير أن يعاقبهم عليها . لم يكن للإسلام فى جزيرة العرب بقاء . إنّه لا شك أنّ عمليّة قتل اليهود كانت عنيفة ، ولكن لم يكن ذلك حادثاً فريدا من نوعه فى تاريخ الدّيانات . وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين . وقد تحتّم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرّة بعد مرّة ، قبل أن يقدموا إلى غدر

---

(١) ٥١٨/٣ .

أو نقض عهد ، لأنهم قد عرفوا عواقبه الوخيمة ، وشاهدوا أن محمّدا يستطيع ان ينفذ ما يريده[1] .

وقد كان من فوائد القضاء على آخر حصن من حصون اليهود فى المدينة ، الضعف الّذى طرأ على معسكر النّفاق ، ونشاط المنافقين . فقد أثّر ذلك فى معنويتهم ، وأفقدهم الشيء الكثير من الثقة والآمال الواسعة فقد كانوا آخر معقل من معاقلهم الكبيرة . يقول الدّكتور إسرائيل ولفنسون معلقا على غزوة بنى قريظة[2] : « وأمّا المنافقون فقد خفت صوتهم بعد يوم قريظة ، ولم نعد نسمع لهم أعمالا أو أقوالا تناقض إرادة النبى وأصحابه ، كما كان يفهم ذلك من قبل » .

وكان فتح قريظة فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة[3] من سنة أربع أو سنة خمس .

وبعد فهذه هى تجربة المصطفى ﷺ المريرة مع اليهود ، وقد تبيّن أنّ علاجهم إخراجهم . قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديرا** ﴾

---

(١) السيرة النبوية للندوى ص ٢١٤ .

(٢) اليهود فى بلاد العرب ص ١٥٥ نقلا عن السّيرة النبوية للندوى ص ٢١٥ .

(٣) انظر هنا مثلا تفسير القرطبى ص ٥٢٢٤ وفى ظلال القرآن ص ٢٨٣٢ .

(١٠)
أزواج النّبىّ ﷺ واجباتهن وحقوقهن
الآيات ٢٨ ــ ٣٥

الآيتان الكريمتان التّاليتان،الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون متماسكتان، حيث إنّ الرّوايات تذهب إلى أنّهما نزلتا معاً فى مناسبة واحدة . قال تعالى:﴿ **يا أيها النّبىّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسرّحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً** ﴾ فما هى المناسبة الّتى نزلت فيها الآيتان الكريمتان؟ أخرج مسلم وأحمد والنّسائى من طريق أبى الزّبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ثمّ أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثمّ أذن لهما . فدخلا والنّبىّ ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت . فقال عمر: لأكلمن النبى ﷺ ، لعله يضحك فقال عمر : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ، امرأة عمر ، سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها . فضحك النّبىّ ﷺ حتّى بدا ناجذاه . وقال : « هنّ حولى يسألننى النفقة » . فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها . وقام عمر إلى حفصة . كلاهما يقولان : تسألون النّبىّ ﷺ ماليس عنده . وأنزل الله الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : إنّى ذاكرٌ لك أمراً ، ما أحبّ أن تعجلى فيه حتّى تستأمرى أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسّرحكنّ سراحاً جميلا** ﴾ قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوىّ بل أختار الله ورسوله[1] وجاء فى صحيح البخارى[2] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنّ رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله أن يخيّر أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : إنّى ذاكرٌ لك أمراً فلا عليك أن

---

(١) لباب النقول ص ١٧٣ وانظر تفسير ابن كثير ٤٨١/٣

(٢) ١٤٦/٦

تستعجلى حتّى تستأمرى أبويك . وقد علم أنّ أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثمّ قال : إنّ الله قال : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسرّحكنّ سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعد للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً** ﴾ . فقلت له : ففى أىّ هذا أستأمر أبوىّ ، فإنّى أريد الله ورسوله والدّار الآخرة » قالت : ثمّ فعل أزواج النّبىّ ﷺ مثلما فعلت »[1] .

قال العلماء : وأمّا أمر النّبىّ ﷺ عائشة أن تشاور أبويها لأنّه كان يحبّها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشّباب على أن تختار فراقه ، ويعلم من أبويها أنّهما لا يشيران عليها بفراقه[2] .

وروي أنّ السّيّدة عائشة رضى الله تعالى عنها قالت للنّبىّ ﷺ : هل بدأت بأحد من نسائك قبلى ؟ قال : لا . قالت فإنّى أختار الله ورسوله والدّار الآخرة[3] فلمّا اختارت الله ورسوله والدّار الآخرة رؤى الفرح فى وجه رسول الله ﷺ[4] وروي أنّها رضى الله تعالى عنها لفرط حبّها لخير خلق الله تعالى كلهم محمّد ابن عبد الله ﷺ قالت : وأسألك ألاّ تخبر امرأة من نسائك بالّذى قلت . قال : لا تسألنى امرأة منهن إلاّ أخبرتها . إنّ الله لم يبعثنى معنّتا ولا متعنّتا ، ولكن بعثنى معلّما ميسّراً[5] ثمّ استقرأ ﷺ الحجر فقالى : إنّ عائشة رضى الله عنها قالت كذا وكذا . فقلن : ونحن نقول مثلما قالت عائشة رضى الله عنهن كلّهن[6] عن قتادة ... أمره الله أن يخيّرهنّ بين الدّنيا والآخرة والجنّة والنّار .. قال : لمّا اخترن الله ورسوله شكرهنّ الله على ذلك فقال : ﴿ **لا يحلّ لك النّساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن** ﴾ فقصره الله عليهن وهنّ التسع اللاّئى اخترن الله ورسوله[7] وإنّ أزواجه ﷺ إذ ذاك تسع وهنّ :

---

(١) صحيح البخارى ١٤٧/٦
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٥
(٣) تفسير الطبرىّ ٩٩/٢١
(٤) تفسير الطبرى ١٠٠/٢١
(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٥
(٦) تفسير ابن كثير ٤٨٠/٣
(٧) تفسير الطبرى ١٠٠/٢١

١ – عائشة بنت أبى بكر .

٢ – حفصة بنت عمر .

٣ – أمّ حبيبة بنت أبى سفيان .

٤ – سودة بنت زمعة .

٥ – أمّ سلمة بنت أبى أميّة .

٦ – ميمونة بنت الحارث الهلاليّة .

٧ – زينب بنت جحش الأسديّة .

٨ – جويرية بنت الحارث المصطلقية .

٩ – صفيّة بن حُيَيّ بن أخطب الخيبريّة[١] .

وروى أنّ أزواجه ﷺ كنّ قد تغاين عليه ﷺ فهجرهنّ شهراً[٢] أو تسعاً وعشرين[٣] ثمّ أنزل التّخيير من الله له فيهنّ[٤] .

ونحن نودّ أن نتبين مناسبة الآيتين الكريمتين هاتين على جهة الخصوص ، بل الآيات الكريمات اللاّتى تتحدّث عن أزواج النّبىّ ﷺ ونساء المؤمنين على جهة العموم بما سبقها من آيات كريمات . لقد تبيّنا من ذى قبل أنّنا بصدد قسمين كبيرين من أقسام السّورة الكريمة . القسم الأوّل هو الذى يسبق الحديث عن غزوتى الأحزاب وقريظة . والقسم الثّانى هو الّذى يتحدّث عن هاتين الغزوتين . فما وجه العلاقة بين الحديث الآن عن أزواج المصطفى ﷺ وعن هاتين الغزوتين ؟ سيتّضح الجواب إن شاء الله تعالى فى ثنايا إلقائنا نظرة فاحصة على معنى الآيتين الكريمتين . ومن هذه التّوطئة . معروف أنّه ﷺ بعد الهجرة مباشرة ، وقبل أن يؤذن للمسلمين فى القتال الّذى كان لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر صفر فى السّنة الثانية من الهجرة[٥] وقبل أن تحلّ الغنائم وينزل بعد موقعة بدر قوله تعالى من سورة الأنفال[٦] :

---

(١) البحر المحيط ٢٢٧/٧

(٢) تفسير الطبرى ١٠٠/٢١

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٥

(٤) تفسير الطبرى ١٠٠/٢١ وانظر البحر المحيط ٢٢٧/٧

(٥) نور اليقين ١١٢ هامش ٧٦ .

(٦) الآية ٦٩

﴿ فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً واتّقوا الله إنّ الله غفور رحيم ﴾ لم يكن تحت تصرُّفه من حطام الدّنيا شيء ذو بال . ونصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين فى بدر وعلى اليهود وبخاصة بنو النضير سنة أربع وبنو قريظة سنة أربع أو خمس . وهذه السّورة الكريمة تتحدّث عن غزوة بنى قريظة كما هو معروف . وكان له ﷺ نصيبٌ من الغنائم على نحو ما صرّح بذلك قوله تعالى من سورة الأنفال[1] ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كلّ شيء قدير ﴾ لمّا حصل ذلك ظنّ أزواجه ﷺ أنّه اختصّ بنفائس اليهود وذخائرهم . فقعدن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلىّ والحلل والإماء والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضّيق ، وآلمن قلبه بمطالبتهن بتوسعة الحال وأن يعاملهنّ بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم . فأمره الله أن يتلو عليهنّ ما نزل فى أمرهنّ[2] والآن إلى معنى الآيتين الكريمتين . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النّبىّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلا . وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً ﴾.

وواضحٌ أنّ الخطاب يوجّه إلى المصطفى ﷺ فى أسمى طرق الخطاب « يا أيّها النّبىّ » ويطلب إلى هذا النّبىّ الكريم أن يخير زوجاته بين الحياة الدّنيا والآخرة. وتأمّل هذه الصفة « الدّنيا » فى حقّ الحياة الأولى الّتى نحياها . وما يرتبط بهذه الحياة من متع ، أبسط ما يقال فى حقّها إنّها متعٌ مصيرها إلى زوال . هذا إذا صحّ أنّ هذه المتع طيّبة من كلّ جوانبها وليست خبيثة فى جانب واحد من جوانبها أو أكثر من جانب . فكيف بزينة هذه الحياة الدّنيا إن لم تكن طيّبة وكانت خبيثة ؟ وفى إمكاننا أن نتدبّر كذلك هذه الصفة الّتى وصفت بها الحياة الدّنيا فى القول : « وزينتها » إذ المعروف أنّ الزّينة عبارةٌ عن طلاء خارجىّ لهذه الحياة الّتى وصفت من قبل على حقيقتها بأنّها الحياة الدّنيا . وبهذا يتبيّن أنّ الزّينة عرضٌ لهذه الحياة وليس جوهراً ، وبالتّالى فإنّ الّذى يخدع بالطّلاء الخارجى والبريق الظّاهرى هو الغِرّ الغفل من

---

(١) الآية ٤١ .

(٢) البحر المحيط ٢٢٧/٧

التجارب ، لأنّ هذه الزّينة الخارجية ، من الجائز أنّها تخفى خلفها الكثير من الأذى والقذى . وتلك حقيقة الحياة الدّنيا الّتى لا يليق بالمسلم لله ربّ العالمين أن يتّخذها غاية له وهدفا . وربما نتبين أعماق وصف الحياة بالدّنيا وبأنّ عليها طلاءً خارجيًا حينما نقارن بين تعبيرى الآيتين الكريمتين عن الحياة الدّنيا والحياة الآخرة . جاء فى هذه الآية الكريمة عن الحياة الدّنيا القول : ﴿ **إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها** ﴾ وجاء فى الآية الكريمة التّالية عن الحياة الآخرة القول :﴿ **وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة** ﴾ لقد عبّر عن الحياة الآخرة بالدّار . والمعروف فى عرف العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أنّ الدّار نوع من البناء الراسخ . وهذا البناء يعدّ من أجل أن يسكنه أولئك الّذين ألفوا حياة الاستقرار كالزراعة ، وليس حياة التّنقّل كالرّعى . وإنّ وصف الدّار بالآخرة يقابل وصف الحياة الأولى بالدّنيا وينزّل الحياة الأولى المنزلة الحقيقة الّتى لا ينبغى أن تتخطّاها . إنّها عبارة عن مرحلة عبور إلى الحياة الآخرة النّهائية . ومن هو العاقل الّذى يؤثر الوسيلة على الغاية . الفناء على البقاء . الزّوال على الخلود .

إنّ هذه الزّينة الّتى تتحلى بها الحياة الدّنيا حياة الغرور ، يربأ بالنّسوة اللاّئى ارتبطت حياتهنّ بحياة خير خلق الله تعالى كلّهم ، إمام المجاهدين والزّاهدين والمتقين ، محمّد بن عبد الله ﷺ ، أن يكون لهن بها مجرّد علاقة ، تزيد على العلاقة الّتى لابد منها للعبد الّذى يعلم يقينا بأنّ الآخرة خير له من الأولى ، وهو يعمل وفق ذلك العلم ، وبالتّالى هو ينزل نفسه فى هذه الحياة ، المنزلة الّتى وضع المصطفى ﷺ نفسه فيها ، حينما شبّه نفسه بذلك المسافر الّذى أدركته القيلولة فاستظل بشجرة ثمّ مضى وتركها . إنّ الحياة الدّنيا وزينتها ينبغى فى حقّ زوجات المصطفى ﷺ أن تكون بمثابة ظلّ تلك الشجرة الذى لا غنى عنه وقت الهاجرة ، والّذى تنتهى قيمته بانتهاء دوره وكيف لا تكون علاقة أزواج المصطفى ﷺ بالحياة الدّنيا فى هذه الصّورة ، وقد جاء فى صدر السّورة الكريمة ما يفيد تنزيل هؤلاء الزّوجات منزلة الأمّهات تكريما من الله تعالى لهنّ وتشريفا لكونهنّ أزواج خير خلق الله تعالى كلّهم ، ولكونهنّ من آل البيت الّذين أراد الله تعالى أن يذهب عنهم الرّجس ويطهرهم تطهيراً . قال تعالى[1] : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم** ﴾

(١) سورة الأحزاب ٦

ولعلّنا تبيّنا العلاقة بين ما نحن بصدده من معان فى الآيتين الكريمتين ، وبين القسم من السّورة السّابق للحديث عن غزوتى الأحزاب وقريظة ، بعد أن تبينا العلاقة بين الآيتين الكريمتين هاتين وبين الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن الغزوتين . إن المنزلة العالية والشرف الرّفيع الّذى كان من نصيب أزواجه ﷺ له ثمنه . ومن ذلك الانصراف الكلى عن الدّنيا الذى يعنى الإقبال الكلى على الله تعالى . فلا مكان للغنائم فى نفوسهن رضوان الله تعالى عليهن بل لامكان للدّنيا بحذافيرها فى تلك النّفوس الطيبة . الطاهرة . وما الّذى يترتّب لو فرض أنّ زوجاته ﷺ أو إحداهن أردن الحياة الدّنيا وآثرن زينتها على ما أعدّ الله تعالى لهنّ فى الآخرة من خير عميم ؟ الجواب فى شقّ الآية الكريمة الثّانى : ﴿ **فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلا** ﴾ إن التّصرّف معهنّ لو فرض أنّهن اخترن الحياة الدّنيا وزينتها سيكون نابعا من ذات الخلق العظيم الّذى يتحلّى به الرّسول الكريم . أن يمتّعهن ﷺ ، بأن يعطيهنّ ما يتمتّعن به ممّا أشار إليه قوله تعالى فى سورة البقرة[1] ﴿ **ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقّاً على المحسنين** ﴾ وقوله[2] ﴿ **وللمطلّقات متاع بالمعروف حقًا على المتقين** ﴾ وأن يسرّحهنّ ﷺ سراحا جميلا . بمعنى أن يطلقهن طلاقا بائنا وفق سنة الإسلام الكريمة .

أمّا كون التّسريح معناه الطّلاق البائن ، فقد أشار إلى ذلك قوله تعالى من سورة البقرة[3] : ﴿ **الطّلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ ففهم أنّ المراد بالتسريح التطليقة الثّالثة ، الّتى تبين بها المرأة بينونة كبرى ، والّتى أشار إليها قوله تعالى من سورة البقرة كذلك[4] : ﴿ **فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** ﴾ وقد وصف التّسريح بأنه سراح جميل ، لأنه يتجلّى فيه خلقُ الإسلام العظيم فى طريقة تنفيذ الطّلاق وتطبيق آخر علاج للعلاقة الزّوجية . وقد أشار إلى هذه الطّريقة الكريمة قوله تعالى من سورة الطّلاق[5] : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ إذا طلقتم**

---

(١) الآية ٢٣٦
(٢) سورة البقرة ٢٤١
(٣) الآية ٢٢٩
(٤) الآية ٢٣٠
(٥) الآيات ١ - ٣

النّساء فطلقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة واتقوا الله ربّكم لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشّهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ، إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾.

ولعلّنا لاحظنا أنّ التمتيع قد أشارت إليه الآية الكريمة قبل إيقاع الطّلاق البائن فى طريقة جميلة . دليلا آخر على خلق الإسلام العظيم . ولعلّنا لاحظنا كذلك صفة الجمال الّتى تخلعها الآية الكريمة على الطّريقة الّتى يتمّ بها تنفيذ أبغض الحلال إلى الله تعالى . ومع من يُؤثر لفظ الجمال الدّالّ على منتهى الرّقة واللطف والذّوق ؟ مع اللاّئى يفترض فيهنّ أنهنّ آثرن العاجلة على الآجلة ، النّار على الجنّة ، النعيم الزّائل على النعيم المقيم ، مع اللاّئى يفترض فيهنّ أنّهنّ انقدن لهوى النفّس الأمارة بالسوء والشّيطان الرّجيم . وأبين رضا الله تعالى ورسوله . ولا شك أن المصدر سراحاً قوة لهذا الجمال وذلك الجلال : ﴿ فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحا جميلا ﴾ .

ولعلّنا لاحظنا كذلك أنّ ذلك التّصرّف الكريم ، والصفة الجميلة قدمهد لكلّ بالقول « فتعالين » الّذى ليس له النظير فى الدّلالة على خلق الإسلام العظيم فى تكريمه للمرأة ، ومنزلتها العالية الرّفيعة فى الإسلام . إنّ جملة تعال فى اللغة ذات علاقة بالعلوّ والارتفاع و « أصل تعال أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن كان فى المكان المستوطىء . ثمّ كثر حتّى استوت فى استعماله الأمكنة »[1] وصارت بمعنى هلمّ ، حتّى يقال لمن هو فى علوّ تعال وأنت تريد اهبط[2] ونحن نستيطع أن ننظر إلى جملة « فتعالين » فى الآية الكريمة من أكثر من زاوية وهذه النظرة وإن كانت فى الأساس حسّيّة إلاّ أنّ لها دلالتها المعنويّة المرتبطة بناحية العلوّ والارتفاع والسّموّ الحسّيّة .

---

(١) الكشاف ٢/٥٣٦

(٢) الصاحبى ص ٢١٤

إنّ زوجات المصطفى ﷺ ، فيما لو فرض أن اخترن الحياة الدّنيا وزينتها ، ورغبن عن رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم وعن الدّار الآخرة – ويأبى الله تعالى أن يتمّ ذلك – فإنّ الأسلوب الّذى يستعمل فى خطابهنّ ، رغم اختيارهنّ غير الّذى يريده الله تعالى لهن ورسوله الكريم ، هو الأسلوب الكريم الّذى يوحى باستمرار ارتفاع منزلتهنّ ومكانتهنّ لانتمائهنّ إلى جنس بنى آدم الّذين كرّمهم الله تعالى وحملهم فى البرّ والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، ولأنهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين ، يتصرفن فى حدود ما رزقهنّ الله تعالى من الطّيبات ، ولم ينسين نصيبهن من الدّنيا .

إن التّعبير « فتعالين » يمكن أن ينظر له من زاوية أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن ، حيث يطلب منهنّ فى هذه الطّريقة الكريمة طريقة العلوّ والسّموّ ، أن يمارسن ما طلبن مما أحلّ الله تعالى لهنّ فى الحياة الدّنيا والاستمتاع بزينتها ، ولكن سيخسرن فى المقابل الشىء الكثير والكثير . إنّ الحياة الدّنيا وزينتها الّتى يفترض أنّ أزواجه ﷺ قد اخترنها ، ممّا يعتبر فى حقيقته هبوطا وليس علوّا ، نزولاً وليس ارتفاعاً ، يعبّر عنه بأسلوب القرآن الكريم فى خطابه النبيل لهنّ بطريقة تشعر بالسّموّ والعلوّ ، وكأنّ المقصود أن يرغب هؤلاء النّسوة اللاّتى اصطفاهنّ الله تعالى بعلوّ الشّأن ، عن الحياة الدّنيا وزينتها . وذلك هو الّذى حصل فعلا .

وفى الإمكان أن ننظر إلى الجملة ذاتها من زاوية المصطفى ﷺ خير خلق الله تعالى كلّهم . فإنّ نسوته ﷺ لو أردن الحياة الدّنيا وزينتها ، حينما يتّجهن إليه ويقبلن بإرادتهنّ واختيارهن[1] يكنّ سائرات فى طريق يتجه علوّا وصعداً حيث المصطفى ﷺ الرّفيع الذّكر الجليل الشّأن . يقول القرطبى فى هذا الشّأن[2] : « فتعالين » هو جواب الشّرط . وهو فعل جماعة النّساء من قولك تعال وهو دعاء إلى الإقبال إليه . يقال : تعال بمعنى : أقبل وُضِعَ لمن له جلالة ورفعة ، ثمّ صار فى الاستعمال لكلّ داع إلى الإقبال . وأمّا فى هذا الموضع فهو على أصله ، فإنّ الداعى هو رسول الله ﷺ .

---

(١) انظر الكشاف ٢/٥٣٦

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٢

ويختار نسوته ﷺ الله تعالى ورسوله الكريم والدّار الآخرة . ويستمّر إرشاد الآية الكريمة هؤلاء النّسوة الكريمات إلى طريق العلوّ والرّفعة الّذى لا نهاية لعلوّه ورفعته وذلك بإرشادهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ ، بأنّ الّذى ينتظر منهن ، لارتباطهنّ بخير خلق الله تعالى كلّهم ، هو أعلى ما يمكن أن ينتظر من أتقى خلق الله تعالى ، ألا وهو الإحسان الّذى يبدو سموّه من حديث المصطفى الّذى عّرف فيه الإحسان وأظهره أعلى الدّرجات الثلاث ، الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . فإذا تبيّنّا أنّ المصطفى ﷺ قد عرّف الإحسان بأنّه أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، استطعنا أن نتمثّل شيئاً من المطلوب من أزواجه ﷺ . قد كان كلّ ذلك منهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين . ويكفى أن يقال فى هذا الصدد : إنّ زهاء ثلث هذا الدّين إنّما جاء عن طريق هؤلاء الزّوجات الطّيّبات الطّاهرات رضى الله تعالى عنهنّ وأرضاهنّ وجعل الجنّة مأواهنّ ومسكنهن . « ومعنى أعدّ هيّأ ويسّر . وأوقع الظاهر موقع المضمر تنبيهاً على الوصف الّذى ترتب لهن به الأجر العظيم ، وهو الإحسان ، كأنّه قال : أعدّ لكنّ ، لأنّ من أراد الله ورسوله والدّار الآخرة كان محسنا »[1] منكنّ ، للبيان لا للتبعيض[2] .

وثمّة أحكام مرتبطة بالآيتين الكريمتين جاء فيها :

١ – عن عائشة رضى الله عنها : خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعدّه علينا طلاقا . أخرجه الصّحيحان[3] لأنّ معنى التخيير التّسريح . قال الله تعالى فى آية التخيير : **فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكن سراحا جميلا** . فمعنى التّسريح البتات . قال الله تعالى : **الطّلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** . والتسريح بإحسان هى الطلقة الثّالثة[4] قال أبو عبيد : والّذى عندنا فى هذا الباب اتّباع السّنّة فى عائشة فى هذا الحديث حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر . قال المروزى : هذا أصحّ الأقاويل عندى . وقاله ابن المنذر والطّحاوى[5] ويقول أبو حيّان[6] « والظّاهر أنهن إذا اخترن

---

(١) البحر المحيط ٢٢٧/٧

(٢) الكشاف ٥٣٧/٢

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٣ والكشاف ٥٣٦/٢

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٤

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٥

(٦) البحر المحيط ٢٢٧/٧

الحياة الدّنيا وزينتها متعهنّ رسول الله ﷺ وطلقهن وأنّه ليس باختيارهنّ ذلك يقع الفراق دون أن يوقعه هو » .

٢ – قيل المتعة واجبة فى الطّلاق وقيل مندوب إليها[١] وقال الزّمخشرى[٤] : « أمتّعكنّ أعطكنّ متعة الطّلاق . فإن قلت : المتعة فى الطّلاق واجبة أم لا ؟ قلت : المطلقة الّتى لم يدخل بها ولم يفرض لها فى العقد متعتها واجبة عند أبى حنيفة وأصحابه . وأمّا سائر المطلقات فمتعتهنّ مستحبة ... والمتعة درعٌ وخمار وملحفة على حسب السّعة والإقتار ، إلاّ أن يكون نصف مهرها أقلّ من ذلك فيجب لها الأقل منهما . ولا تنقص من خمسة دراهم لأنّ أقلّ المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها » .

٣ – اختلف العلماء فى جواز تزوج غيره لهنّ لو طلقهنّ على قولين أصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح والله أعلم[٣] والسّراح الجميل هو أن يكون طلاقا للسّنة من غير ضرار ولا منع واجب لها[٤] .

ونحن نودّ أن نعرف حكمة هذا الموقف الصّارم من إرادة زوجاته ﷺ الحياة الدّنيا ، مع العلم عقلاً ونقلا أنهنّ إنّما يطلبن ما هو فى دائرة المباح والحلال الطيب من متع هذه الحياة والدّنيا .

معروف أنّ المصطفى ﷺ هو إمام المرسلين والمتقين وسيّد العابدين الزّاهدين . ومنذ أن بعثه الله تعالى رحمة للعالمين إلى أن توفاه جل وعلا وهو متفرغ للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد باللّسان ، حتى أذن الله تعالى له باستعمال السّنان بجوار اللسان،وكي نعرف شيئاً من إقباله ﷺ على الدّعوة وتفرغه لها ، يمكن أن نبين أنّه ﷺ بعد وفاة عمّه أبى طالب وزوجه خديجة رضى الله تعالى عنها ، وحينما أراد أن يدعو ثقيفا إلى الله تعالى ، لم يكن لديه أى دابّة يمكن أن يمتطيها كى يقطع ما يزيد على السّبعين كيلو مترا على الأقدام ذهابا وجيئة . والمعروف أنّه ﷺ قبل قليل كان من أثرى تجار الحجاز ولكنّه التّفرّغ للرّسالة[٥] وبعد أن فتح الله تعالى عليه ما فتح ،

(١) البحر المحيط ٢٢٧/٧
(٢) الكشاف ٥٣٦/٢
(٣) تفسير ابن كثير ٤٨١/٣
(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٢
(٥) لنظر هنا نظرية الإسلام وهديه للمودودى ص ١١٤

كان ﷺ ينام على الحصير الذّى يؤثر فى جسده الشّريف . وحينما يفاتح فى ذلك يقول : مالى وللدّنيا ، ما أنا والدّنيا إلاّ كراكب استظل تحت شجرة ثمّ راح وتركها . وفى حنين حينما ملك من الغنائم مالا يحصيه إلاّ الله تعالى ، كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . فعن أنس رضى الله تعالى عنه أنّ رجلا سأله فى حنين فأعطاه غنمابين جبلين فرجع إلى بلاده وقال : أسلموا فإن محمّداً يُعْطى عطاء من لا يخشى فاقة . وحمل إليه ﷺ تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثمّ قام إليها يقسمها فما ردّ سائلا حتّى فرغ منها[1] وحينما حجّ ﷺ حجّة الوداع والمسلمون معه مدّ البصر ، والجزيرة خاضعة له ، على رحل رثّ ، عليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم . فقال : اللهم اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة[2] وكانت له درعٌ عند يهودى ، فما وجد ما يفكها حتّى مات . هذا المصطفى ﷺ ، الّذى ضرب المثل الأعلى فى الزّهد بألاّ يكون للدّنيا شيء من سلطة على قلبك وإن كانت فى يدك ، هذا المصطفى ﷺ يزوج عليا رضى الله تعالى عنه ابنته فاطمة الزّهراء ويبعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحاءين وسقاءين . ويقول علىّ لفاطمة يوما : لقد شقوت حتّى أسليت صدرى،وقد جاء الله بسبى فاذهبى فاستخدمى (أى فاطلبى خادما) فقالت وأنا والله قد طحنت حتّى محلت يداى.فأتت النّبىّ ﷺ فقال : ما جاء بك أى بنية . فقالت : جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت . فأتياه جميعاً فذكر له على حالهما قال : لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصّفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم . فرجعا فأتاهما وقد دخلا فى قطيفتهما إذا غطيا رءوسهما بدت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رءوسهما فثارا فقال مكانكما ،ألا أخبركما بخير ممّا سألتمانى فقالا بلى . فقال : كلمات علمنيهن جبريل تسبحان فى دبر كلّ صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبرّان عشرا . وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين . قال علىّ : فوالله ما تركتهنّ منذ علمنيهنّ[3] هذا المصطفى الّذى هو أحد أولى العزم من الرّسل بل زعيمهم الّذى يأمره الله تعالى فى

---

(١) السيرة النبوية للندوى ص ٣٦٥

(٢) السيرة النبوية للندوى ص ٣٦٤

(٣) الإصابة ، فاطمة ، ٣٧٩/٤

محكم كتابه بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل أولئك ، هذا المصطفى ﷺ الرّسول الأسوة الحسنة الّذى يراد لكلّ حياته الظّاهرة والباطنة، أن يُعْلم ومن هذه الحياة الباطنة مالا يمكن أن يعرفه إلاّ أزواجه ﷺ وهنّ الأولى والأقدر على الخوض فى خصوصيّات النسّاء من جنسهن ، هل من الموافق لرسالته ﷺ ، وهو الّذى لم يسمح له بأن يتزوج بهذا العدد من الزّوجات إلاّ لحكمة أرادها الحكيم الخبير ، هل من الموافق لرسالته أن ينصرف زوجاته عن الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة إلى الحياة الدّنيا وزينتها وهنّ أمّهات المؤمنين ؟ لا إنه ليس من الموافق لزوجاته ﷺ الطيبات الطّاهرات أن ينصرفن عن الدّور العظيم الّذى هيّأتهن له العناية الإلهية ، وأن يغفلن طرفة عين عن الرّسالة العظمى الّتى نيطت بهن بأن يذكرن ما يُتْلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة . إنّه كى يبدو شيء من ثمرة هذه الحكمة الإلهية فى الموقف الصّارم من زوجاته ﷺ ، حينما فكرن فى أن ينلن حظهن ممّا أباح الله لهنّ فى هذه الحياة الدّنيا وضرورة انصرافهنّ بالكلية وتفرغهنّ للدّعوة إلى الله تعالى ، فى إمكاننا أن نتبيّن أنّ هذا الدّين الّذى أكمله الله تعالى لنا وأتمّ به النّعمة علينا ورضيه لنا ، والّذى وعد الله تعالى ووعده الحقّ ، بأن يظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون ، قد وصلنا مالا يقلّ عن ثلثه عن زوجات المصطفى ﷺ الطيّبات الطّاهرات . إن زوجاته ﷺ لو انصرفن إلى الحياة الدّنيا وزينتها ، هل كنّ سيقمن بشيء من هذا الدّور العظيم الذى قمن به فعلا ، رضى الله تعالى عنهنّ وأرضاهنّ وجعل الجنّة مأواهنّ ومسكنهنّ . يقول أبو الحسن الندوى[1] عن زوجاته ﷺ اللاّئى زدنه نشاطا وقوّة : « وكنّ أعوانا له على القيام بما أكرمه الله به من تبليغ الرّسالة ، وأداء الأمانة وتعليم المسلمين دينهم ، ذكوراً وإناثا . وكن يرافقنه فى الحروب والغزوات . فيداوين الجرحى ويمرّضن المرضى ، ويشرن بالخير ويواسين فى الشدة ، وبهن قام نحو ثلث الدّين ، ممّا يتعلق بحياته المنزلية والعشرة . وكثير من الأحكام تعلّمها المسلمون منهن ، وحفظوه ونشروه » لقد تفرغن رضوان الله تعالى عليهن فى حياته ﷺ وبعد مماته للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . وبذلك نلن جميعا رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم ، فاستحققن الأجر العظيم الّذى أعدّه الله تعالى للمحسنات منهنّ ، وقد كنّ

---

(١) السيرة النبوية ٣٥٢ (للندوى)

كلهنّ محسنات . لقد نزّلت الآية الكريمة السّادسة فى السّورة الكريمة أزواجه ﷺ من المؤمنين منزلة الأمّهات . قال تعالى : ﴿ **النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ والّذى ينتظر من أمّهات المؤمنين ، كباراً وصغارا ، شيوخا وأطفالا ، هو الّذى يتمشى مع منزلة الأمومة هذه ومرحلتها . إن لهذه الأمومة تبعاتها . ومن مظاهر ذلك هذا الموقف الصارم من زوجاته ﷺ : فلا مساومة ولا أنصاف حلول . إمّا أن يردن الحياة الدّنيا وزينتها وذلك معناه الانفصال التام عن المصطفى ﷺ . ولن يكنّ بطبيعة الحال أمّهات للمؤمنين وليس فى ذلك رضا لله تعالى ورسوله الكريم . وإمّا أن يردن رضا الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة فيتخلّين عن الدّنيا تماماً ويقبلن على الله تعالى ورسوله ودين الإسلام بالكلية ولهن فى المقابل الثواب الجزيل من الله تعالى والأجر العظيم . لقد تبين أنهن كلهن بتوفيق الله تعالى قد اخترن رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ والدّار الآخرة .

ولعلنا لاحظنا أنّ الآية الكريمة الثّانية لا تبدأ بذكر الدّار الآخرة ، على غرار ابتداء الآية الكريمة الأولى بالحياة الدّنيا وزينتها ، إنّما تبدأ بالسبب من اختيارهنّ للآخرة أو الهدف من اختيارهنّ لها ، وهو رضا الله تعالى ورسوله ، ممّا يفهم منه أن اختيار الدّار الأولى ، ليس فيه رضا الله تعالى ولا رضا رسوله ﷺ ، وممّا يفهم معه أن الحياة الآخرة خير من الأولى وأفضل وأوْلى ، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم فى أكثر من موضع . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكن سراحا جميلا . وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً** ﴾ .

وإذا كان قد تبين فى الآيتين الكريمتن السّابقتين الموقف الحاسم من أزواج المصطفى ﷺ ، فيما لو فرض أن اخترن الحياة الدّنيا ، وإذا كان هذا الموقف الحاسم الخطير ، لم يحتج إلى أكثر من آية واحدة بشأن كل من الحياتين الأولى والآخرة ، وباختيارهنّ لله تعالى ورسوله الكريم والدّار الآخر انتهى كلّ شىء ، فإنّ فى الآيات الكريمات التّاليات بعد ذلك شيئاً من التفصيل الّذى يتضح معه الكثير من الواجبات المنوطة بزوجات المصطفى ﷺ اللاّئى ارتبطت حياتهن بحياته ﷺ وأصبحن أمّهات للمؤمنين ، وتوجهن بكلّ قواهنّ للدعوة إلى صراط العزيز الحميد .

إنّ ما يطلب منهنّ من واجبات فوق ما يطلب من سائر النساء المؤمنات ، لأنّ لهنّ من الحقوق ماليس لغيرهنّ . وإنّ الآيتين الكريمتين التاليتين مترابطتان ، على غرار ترابط الآيتين الكريمتين السّابقتين . قال تعالى : ﴿ **يا نساء النبى من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ .

ونحن نستطيع أن نتبين من طريقة خطاب الآية الكريمة لأزواجه ﷺ ، المنزلة العالية الرّفيعة لهنّ عند بارئهن . ولا يبدو ذلك من ندائهنّ فقط . ولكن من إضافتهن إلى النبى ﷺ الّذى آثرنه على الدّنيا وما فيها : ﴿ **يا نساء النبى** ﴾ وقد عرفنا من قبل منزلته ﷺ عند بارئه ، من انفراده بخطاب الله تعالى له بالقول : « **يا أيّها النبى** » و « **يا أيّها الرّسول** » .

وعلى غرار حديث الآيتين الكريمتين السّابقتين عن الأمر المرغوب عنه : ﴿ **إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسرّحكنّ سراحاً جميلا** ﴾ كان حديث أولى الآيتين الكريمتين الآن عن الأمر المرغوب عنه كذلك ﴿ **من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين . وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ وكى يتبين نأى نساء النبى ﷺ عن ارتكاب أى فاحشة ، يتبين أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة « يأتى » والمعروف أنّ الأصل « أتى » ومشتقاته فى القرآن الكريم ، لا يستعمل إلاّ دليلا على البعد ، سواء أكان البعد مكانيا أم زمانيا أو نفسيّا . ومن الطبيعى أن تكون أدنى فاحشة بمنأى عن زوجاته ﷺ اللاّتى يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة واللاتّى أراد الله تعالى أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن تطهيراً . إنّ أزواجه ﷺ أسمى من أن يهبطن إلى أبسط صور الفاحشة النائيات عنها كلّ النأى . ويمكن أن نفهم من القول : « منكن » البيان الذى فهم فى الآية الكريمة السّابقة . وإذا كانت من تفيد التبعيض ، أمكن أن نتبين فى ذلك دليلاً على جواز التفاضل بينهن فى الإحسان ، وحثّاً لهن على التّسابق فيه .

فما المراد بالفاحشة . مع العلم بأنّنا نتعامل مع زوجات المصطفى ﷺ الطيبات الطّاهرات الرّفيعات عن ارتكاب صغائر الذّنوب فكيف بكبائرها ؟ نحن فى إمكاننا

أن ننظر إلى لفظة فاحشة الّتى جاءت منكرة من زاويتين اثنتين ، الزّاوية الأولى ما يمكن أن تدل عليه اللفظة من جريمة الزّنا . وليس بخاف أنّنا بصدد أسلوب للشرط يتعلق جزاؤه بتحققه ، ولا يرتبط بذكره تحققه ، كقوله تعالى[1] :﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننّ من الخاسرين** ﴾ وقوله تعالى[2] :﴿ **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ وقوله تعالى[3] :﴿ **قل إن كان للرّحمن ولد فأنا أوّل العابدين** ﴾ وقوله تعالى[4] :﴿ **لو أراد الله أن يتّخذ ولدا لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ كما أن فى الإمكان أن ننظر إلى هذه اللفظة من زاوية المنزلة الرّفيعة الّتى اختص بها أزواجه ﷺ من كون الفاحشة المبينة هى ما قال عنه ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما : النشوز وسوء الخلق[5] أو الكبيرة من المعاصى[6] ولا يتوهّم أنّها الزّنا لعصمة رسول الله ﷺ من ذلك ولأنّه وصفها بالتبيين والزّنا ممّا يتستر به[7] .

ونحن إذا ذهبنا إلى كون لفظة الفاحشة بمعنى الزّنا المعروف[8] أو كبائر المعاصى أو النشوز وسوء الخلق ، ونزّل الأخير هذه المنزلة السيئة لأنّ صغير الذنب حينما يأتى ممن لا يتوقع منه ذلك يبدو كبيرا فكيف النشوز وسوء الخلق إذا صدرا من إحدى زوجاته ﷺ ، وقد قال الله تعالى فى السّورة الكريمة :﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدّنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا** ﴾ .
أقول إذا نحن ذهبنا إلى أىّ من ذلك فإنّا نقول ما قال ابن كثير فى تفسيره[9] :

---

(١) سورة الزمر ٦٥
(٢) سورة الأنعام ٨٨
(٣) سورة الزّخرف ٨١
(٤) سورة الزمر ٤
(٥) تفسير ابن كثير ٤٨١/٣
(٦) البحر المحيط ٢٢/٧
(٧) البحر المحيط ٢٢٨/٧
(٨) تفسير الطبرى ١٠١/٢١
(٩) ٤٨١/٣

« وعلى كل تقدير فهو شرط والشّرط لا يقتضى الوقوع » وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزّنا واللواط . وإذا وردت منكرة فهى سائر المعاصى . وإذا وردت منعوته فهى عقوق الزّوج وفساد عشرته[1] والفاحشة المبينة الظّاهر فحشها[2] وقرىء مبينة بفتح الياء وكسرها من بين بمعنى تبين[3] وقد قرأ ابن كثير مبيّنة بفتح الياء . وقرأنا عنه وأبو عمرو بكسرها[4] .

وما معنى الضعف فى قوله تعالى : ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ ؟ نستطيع أن نفهم من كون الأجر الّذى ستؤتاه الواحدة من نسائه ﷺ يوم القيامة مرتين أنّ المراد بالضعف المثل فثمة موافقة بين عدد مرّات الثّواب والعقاب . وقد قيل فى معنى الضعف[5] : والضعف فى كلام العرب المثل إلى مازاد وليس بمقصورٍ على مثلين يقال : هذا ضعفُ هذا أى مثله . وهذا ضعفاه أى مثلاه . فالضعف فى الأصل زيادة غير محصورة قال الله تعالى : فأولئك لهم جزاء الضعف[6] ولم يرد مثلاً ولا مثلين وقد ذهب ابن القيمّ فى طريق الهجرتين[7] بعد أن استعرض ما قيل بشأن الضعف : « الصّواب أنّ الضعفين هما المثلان فقط ، الأصل ومثله ، وعليه قوله تعالى[8] : فآتت أكلها ضعفين ، أى مثلين ، وقوله تعالى : يضاعف لها العذاب ضعفين ، أى مثلين . ولهذا قال فى الحسنات : نؤتها أجرها مرّتين » .

وقد عرفنا أنّ هذا النوع من التهديد بالعذاب الشديد كفاء نعم الله تعالى على نساء النبى ﷺ وفضله عليهنّ ، فقد ارتبطت حياتهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ بحياته ﷺ ، فكنّ أمّهات للمؤمنين ، ومنازلهنّ مهبط الوحى ، وفيها تتلى آيات الله تعالى والحكمة . ولهذا ذيلت الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ إنّ تلك النعم تبعث على شكرها لا على كفرها ، وإنّ كونهن أزواجه ﷺ لا يعنى أنهنّ

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٨
(٢) الكشاف ٢/٥٣٧
(٣) الكشاف ٢/٥٣٧
(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٨
(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٧
(٦) سورة سبأ ٣٧
(٧) ص ٤٨٢
(٨) سورة البقرة ٢٦٥

بمنأى ومنجى من عذاب الله تعالى وكونهن أمّهات للمؤمنين ليس بمغن عنهنّ شيئاً ، بل المطلوب منهنّ كما عرفنا ما يكافىء هذه النّعم بشكرها كى تبقى هذه النّعم بل تزداد حسب وعد الله تعالى فى كتابه العزيز . وقد كنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين قمة فى الزّهد والإقبال على الله تعالى والتفرغ للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد .

وكما كان العذاب شديداً يفوق عذاب الأخريات فيما لو فرض أن أتين بفاحشة ، من عقوق زوج وفساد عشرة ، وقد قال ابن عبّاس : ما بغت امرأة نبى قطّ وإنّما خانت فى الإيمان والطّاعة[1] كذلك كان ثوابهنّ مقابل الطّاعات أكبر من ثواب غيرهنّ . قال تعالى : ﴿ **ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ فالقنوت بمعنى الخضوع والطّاعة . والمعنى من يطع ويخضع بالعبودية وبالموافقة لرسوله[2] وليس بخاف أنّ الإيمان والاطمئنان الّذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **ومن يقنت منكنّ لله ورسوله** ﴾ قد أردف بالعمل الصالح . إنّ الإيمان بالقلب يحتاج دائماً وأبداً إلى الدّليل الشّاهد على صحته وهو العمل الصّالح . وانظر إلى فضل الله تعالى المستمرّ على أزواج المصطفى ﷺ حينما يطلق العذاب فى القول : ﴿ **يضاعف لها العذاب ضعفين** ﴾ بينما يقيد الأجر بالإضافة « **أجرها** » فى القول ﴿ **نؤتها أجرها مرّتين** ﴾ وليس ذلك فحسب . بل إنّ ربّ العزّة كرما منه وفضلا أعدّلهن رزقا كريما ﴿ **وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ فلازلنا مع نون العظمة التى صادفناها فى القول : نؤتها[3] ثمّ نحن مع الرّزق الّذى[5] هو مجرّد فضل من الله تعالى . نَفْهمُ هذا بشأن كلّ الخلائق فى هذه الحياة الدّنيا من مثل قوله تعالى[4] : ﴿ **وما من دابّة فى الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلّ فى كتاب مبين** ﴾ وبشأن المتّقين فى الدّنيا كذلك من مثل قوله تعالى[3] : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ فكيف بما يرزق به على جهة

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٨

(٢) البحر المحيط ٢٢٨/٧ وتفسير ابن كثير ٤٨٢/٣ وتفسير الطبرى ٢/٢٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٥٨

(٣) انظر البحر المحيط ٢٢٨/٧

(٤) سورة هود ٦

(٥) سورة الطلاق ٢ ، ٣

الخصوص أزواج المصطفى ﷺ ، اللاّئى أردن جميعاً الله تعالى ورسوله الكريم والدّار الآخرة . إنّ الرّزق ينبغى أن يكون كريماً وهذه هى اللفظة بالذات التى استعملت صفة للرّزق فى هذه المناسبة . قال تعالى : ﴿ وأعتدنا لها رزقاً كريما ﴾.

وثمّة ملاحظة لطيفة نودّ أن نشير إليها ، إضافة إلى كلّ المظاهر الّتى تبيّنا والّتى لم نتبين بشأن الآيتين الكريمتين ، دليلا على فضل الله تعالى وكرمه . وهذه الملاحظة تتلخص فى كون هذه المسألة المصيرية الحاسمة المتعلقة بتمتيع أزواجه ﷺ ، ينتهى كل ماله علاقة بها فى آية كريمة واحدة تتضمن من تكريم جنس المرأة مالا يخفى . ويلاحظ كذلك أن ما يخصّ إرادتهنّ رضا الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة يجىء فى آية كريمة واحدة . وبذلك يسدل الستار إلى الأبد على هذا الأمر الّذى تبيّنا بشأنه أنّهنّ رضوان الله تعالى عليهن قد اخترن رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم والدّار الآخرة . فما الّذى يلاحظ على حديث الآيات الكريمات عن المسئوليات والتبعات على عاتق كلّ واحدة من أزواجه ﷺ ؟ الملاحظ بعد ذلك أن الإشارة إلى الفاحشة المبينة تذكر عرضاً لمرّة واحدة . وقد عرفنا اختلاف العلماء بشأن معنى هذه الفاحشة الّذى رجح فى حقهن كون المراد بها سوء العشرة ، وذلك فى ضوء معرفة السّبب الذى نزل من أجله تخييرهن رضوان الله تعالى عليهنّ . فإذا تدبّرنا الآيات الكريمات وراء ذلك تبينا أنّها كلّها عبارة عن أوامر ونواه ، من أجل الوصول ببيت النبوة إلى هذه المرتبة الرّفيعة التى أشار إليها قوله تعالى : ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾.

وإذا كنا لاحظنا أنّ الآية الكريمة الّتى أشارت إلى اختيارهنّ الحياة الدّنيا وزينتها ، قد قابلتها آية كريمة ، أشارت إلى اختيارهنّ الله ورسوله والدّار الآخرة ، فإنّ الآية الكريمة الّتى تشير إلى الفاحشة المبيّنة تقابلها آية كريمة تشير إلى قنوتهنّ . وكأنّنا بصدد ميزان ذى كفتين ، يوضع فى إحدى الكفتين الأمر المرغوب عنه . ويوضع فى الوقت ذاته فى الكفة الأخرى الأمر الرغوب فيه ، وتشاء العناية الإلهية أن ذلك الأمر المرغوب فيه هو الّذى يختاره أزواجه ﷺ الطيبات الطّاهرات . وتظلّ الآيات الكريمات بعد ذلك تملأ الكفة المتعلقة بالأمور المرغوب فيها بكلّ ما يطهّر أهل البيت تطهيراً . ويكون ذلك عن طريق النّهى والأمر . النّهى عن المفضول إلى الفاضل ،

وبذلك تشيل الكفة الأخرى فى الهواء ، لأنا نجد التهديد بالعذاب مقرونا فقط بالفاحشة المقيّدة بكونها مبيّنة . وما أنأى أزواجه ﷺ الطيبات الطّاهرات عن الفاحشة ، فكيف بالفاحشة المبيّنة . أمّا ماتلا ذلك من أوامر ونواه فإنّها أوامر بكلّ خير ونواه عن كلّ مالا يليق بهنّ وبنساء المؤمنين بصفة عامة . وهى نواه عن كل ما يقلّ مستوى فى السوء عن الفاحشة المبيّنة الّتى عرفنا أنها فى حقهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ عبارة عن سوء معاشرة الزّوج . وبتدبرنا لهذه الأوامر والنواهى ، يتبين أنّ أزواج المصطفى ﷺ ، يخاطبن الآن من واقع المسئولية الملقاة عل عاتقهنّ باعتبار كلّ واحدة منهنّ أمّا للمؤمنين . وقد قمن رضوان الله تعالى عليهن أجمعين بدورهن خير قيام . وقد عرفنا أنّ زهاء ثلث هذا الدّين إنّما جاءنا عن طريقهن رضوان الله تعالى عليهن وبخاصة ما يتعلق بجنس النّساء . وإليك هذه الآيات الكريمات التّاليات حتى نهاية الآية الخامسة والثلاثين من السّورة الكريمة . قال تعالى :﴿ **يا نساء النّبىّ لستن كأحد من النّساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفا . وقرْن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة وأطعن الله ورسوله . إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً . واذكرن فى ما يُتْلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا . إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصّدقين والمتصّدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾.

فمع الآية الأولى . قال تعالى :﴿ **يا نساء النّبى لستن كأحد من النّساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفا** ﴾ إنّ الآية الكريمة كما هو واضح ترشد نساء المصطفى ﷺ ، وإنّ نساء الأمّة تبع لهن فى ذلك ، إلى الطّريقة الشّرعية فى مخاطبة جنس المرأة لجنس الرّجال غير الأزواج وغير المحارم . إنها الطريقة الوسط بين الخشونة والنّعومة . وإن كانت إلى الخشونة والصّرامة أقرب . إنّ القول الوسط هو القول المعروف وهو الصّواب الّذى لا تنكره الشّريعة

ولا النفوس[1] فكيف انتهت الآية الكريمة إلى تقرير هذه الطريقة من القول المعروف ؟ لقد ابتدأت على غرار آية كريمة سابقة بمخاطبتهن رضوان الله تعالى عليهنّ فى طريقة كريمة تذكرهنّ بمنزلتهنّ الرّفيعة وفضلهنّ العظيم لارتباطهنّ به ﷺ ، زوجات صالحات قانتات « يا نساء النبىّ » « فكما أنّه عليه السّلام ليس كأحد من الرّجال ، كما قال عليه السلام : لست كأحدكم . كذلك زوجاته اللاّتى تشرّفن به »[2] .

ولا يخفى أنّنا الآن بصدد إرشادهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ إلى التكاليف المنوطة بهنّ دليلاً على قنوتهن لله تعالى ولرسوله الكريم وترجمتهن كل ذلك إلى عمل صالح حثت عليه الآية الكريمة السّابقة . ويمهد لهذه التكاليف بتقرير منزلتهنّ الفريدة بين نساء الأمة ﴿ **لستن كأحد من النساء** ﴾ إنّهنّ كجماعة لا توجد بين نساء الأمّة جماعة واحدة تشبههن فى المنزلة والفضل وتلك نعمة عظمى عليهن لها ما يقابلها من الأعمال الجليلة الّتى تنتظر منهن على جهة الخصوص لما خصصن به من إكرام .

وواضح أنّ الآية الكريمة يمكن أن تُتلى مرّة واحدة . ووقتها يتعلّق القول : « إن اتّقيتن » بما سبق أو بما لحق . فمن علق الشّرط بما سبق فهم أنّ نساء النبى لسن كأحد من النّساء شريطة أن يتقين الله . ومن علق الشّرط بما لحق ، فهم أنّ هذه المنزلة لهنّ ثابتة أصلاً لأنهنّ جميعاً تقيات . وهذا المعنى هو الّذى يفهمه ويريده من وقف عند القول : « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء** » ونحن إلى هذا النّوع من الفهم أميل ، لأنّ تميّز نسوته ﷺ وانفرادهنّ بهذه المنزلة الرّفيعة حقّ ثابت لهن أصلا ، لارتباط حياتهنّ بحياته ﷺ . و : « **أحد** » فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد . ثمّ وضع فى النفى العام مستويًا فيه المذكر والمؤنّث ، والواحد وما وراءه . ومعنى قوله لستن كأحد من النّساء ، لستن كجماعة واحدة من جماعات النّساء . أى إذا تقصّيت أمّة النّساء جماعة جماعة ، لم توجد منهنّ جماعة واحدة تساويكنّ فى الفضل والسابقة . ومثله قوله تعالى[3] : ﴿ **والّذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم** ﴾ يريد بين جماعة واحدة منهم ، تسوية بين جميعهم فى أنهم على الحق

---

(١) انظر تفسير القرطبى ص ٥٢٦٠

(٢) البحر المحيط ٢٢٨/٧

(٣) سورة النّساء ١٥٢

المبين[1] وإذا كانت جماعتهن رضوان الله تعالى عليهن متميزة عن جماعات النساء ، فإن هذا الحقّ لكلّ واحدة منهن على حدة ولذلك نظر البعض إلى أحد من زاوية المفرد . فقال أبو حيّان مثلاً[2] : أى ليس كل واحدة منكن كشخص واحد من النساء .

ومعنى إن اتقيتن أى خفتن الله[3] فأطعتنه فيما أمركنّ ونهاكنّ[4] ويلاحظ بشأن القول : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ أهمية طريقة كلام المرأة مع غير المحارم ، فى تحديد نوع نظرة الرّجال إليها . إن دليل خوف المرأة لله عزّ وجلّ وتقواها ، خوفها الشديد على عرضها أن يمسه أدنى خدش أو أذى . وإنّها وهى الناعمة بفطرتها ، بحاجة إلى طريقة كريمة أبية فى التعبير ، يُفْهم معها حقيقة شرفها وعفتها . وهاهى ذى الآية الكريمة ترشد نساء النبى ﷺ ونساء الأمّة إلى طريقة الكلام الصّحيحة مع غير المحارم . إنّه القول المعروف . وقد مهدّ لذلك بالنّهى عن الخضوع فى القول الذى قد يوهم بالخضوع فى الفعل . إنّ النّعومة فى مخاطبة الأجانب . وترخيم الصوت ولينة أمور منهى عنها ، لأنها تشجع مريض القلب بأن يطمع فيها مع أنها هى العفيفة الطّاهرة الشريفة . إن ربّ العزة الّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ينهى جنس المرأة ممثّلا فى نساء النبى ﷺ عن لين القول الذى يؤدّى إلى أن يطمع فيهن المتشوف للفجور ، الفاسق الغزل . ولا يكون شىء من ذلك إلاّ وليد مرض القلب ودليل قلة الإيمان . قال الطبرى[5] : « يقول : فيطمع الذى فى قلبه ضعف فهو لضعف إيمانه فى قلبه إمّا شاك فى الإسلام منافق فهو لذلك من أمْره يستخف بحدود الله وإمّا متهاون بإتيان الفواحش » .

أمّا الطّريقة المثلى الّتى يطلب من نساء النبى ﷺ أن يحادثن فيها غير المحارم ، وقد كانت بيوتهنّ مقصدّ السّائلين والسّائلات ، العالمين والعالمات ، طالبى العلم والطّالبات ، وإنّ نساء الأمّة تبعٌ لهنّ فى ذلك ، فهى أن يقلن قولا معروفا ، غير

---

(١) الكشاف ٥٣٧/٢

(٢) البحر المحيط ٢٢٨/٧

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٩

(٤) تفسير الطبرى ٣/٢٢

(٥) تفسير الطبرى ٣/٢٢

المنكر ، الوسط بين رفع الصوت ولينه . يقول القرطبيّ[1] : قوله تعالى : وقلن قولا معروفا . قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرّمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت . فإنّ المرأة مأمورة بخفض الكلام وعلى الجملة ، فالقول المعروف هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا النفوس « امرهن الله أن يكون قولهنّ جزلا وكلامهنّ فصلا . ولا يكون على وجه يظهر فى القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ، كما كانت الحال عليه فى نساء العرب ، من مكالمة الرّجال بترخيم الصوّت ولينه ، مثل كلام المريبات والمومسات . فنهاهنّ عن مثل هذا »[2] قال تعالى : **﴿ يا نساء النّبىّ لستن كأحد من النّساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾**.

وحينما نتبين أنّ طريقة حديث جنس المرأة للرّجال غير المحارم ، ممثّلات فى نساء النّبىّ ﷺ ، قد استأثرت بكونها أولى القضايا الّتى بينت فيها الآية الكريمة الجانب السّيىء فنهت عنه . والجانب الحسن فأمرت به ، ندرك أهمّيّة القول وخطورة كلام المرأة المضطرّة إليه ، إلى الرّجال من غير المحارم . إنّ المطلوب من المرأة المسلمة لله ربّ العالمين أن تقول قولاً معروفا ، وألاّ تخضع بالقول لأنّ ذلك يؤدىّ إلى إساءة فهم حقيقة المرأة العفيفة الطّاهرة النظيفة. وهذا الّذى تقول به التجربة كذلك . فلنتق الله جميعاً ولنقل قولا سديداً . وحينما يكون القول معروفا ، فإنّ ذلك النّوع من القول طارد بعون الله تعالى لكل أوهام مرضى القلوب والنفوس. وهؤلاء هم الّذين تخصّهم الآية الكريمة بأخذ الحيطة منهم والحذر .

ومعروف أنّ حديث المرأة للأجانب ، إنّما يكون بدافع الضرورة وخاصة حينما ترغمها الحاجة على أن تكون خارج منزلها . وإلاّ فإنّ الأكرم لها والأفضل ، والأولى بها والأخلق ، أن تبقى فى منزلها ، وألاّ تغادر المنزل إلاّ لحاجة ملحّة . وقد ابتدأت الآية الكريمة التّالية بهذه المسألة المهمة . جاء فى هذا الشّأن لنساء النبى ﷺ وهنّ الأسوة الحسنة للمؤمنات قوله تعالى : **﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى وأقمن الصّلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنّما يريد الله ليذهب**

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٠

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٩

عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾.

ونودّ ابتداءً أن نشير إلى نوع العلاقة بين القول فى صدر الآية الكريمة ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ وبين القول فى عجزها ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ﴾ ممّا يعتبر أحد الأدلّة على كون نساء النبى ﷺ إحدى دعامات هذا البيت الطيب الطّاهر.

ولماذا يطلب من المرأة المسلمة لله ربّ العالمين أن تقرّ فى بيتها ؟ لأنّ بيتها هو دولتها الحقيقة ومملكتها ، ولأنها حينما تضرب فى الأرض وتمشى فى الأسواق ، مهما كان سلوكها حميدا ، وسيرها مستقيما ، وقولها معروفا ، هى عرضة وقتا من الأوقات لأن تكون مجال إحدى المحاولات من قبل بعض مرضى القلوب والنّفوس . وفى ذلك إيذاء لكرامتها أيمًّا إيذاء وإهانة لشرفها أيمًّا إهانة ، ولا يُرْضى المرأة الطّاهرة العفيفة الشريفة أن تكون حقل تجارب ومجال مضايقات . وهى حينما تكون فى بيتها تكون بمنأى عن أدْنى أنواع الأذى من هذا الجانب، ويتحقق لها فعلا، بالإضافة إلى القرار فى المنزلة الوقار وقد قال تعالى ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ ويطيب لنا أن نشير إلى القراءتين بشأن «وقَرْن » بفتح القاف من القرار . وبكسرها من الوقار. ونحن نتبين أنّ الوقار نتيجة حتمية للقرار فى البيت. وعليه فالقول « وقرن » بفتح القاف يفيده بدلالة الالتزام . يقول مثلاً الطّبرى فى تفسيره[1] اختلف القراء فى قراءة قوله : وقرن فى بيوتكن . فقرأته عامة قرّاء المدينة وبعض الكوفيين : وقرن بفتح القاف . بمعنى اقررن فى بيوتكن وكأنّ من قرأ ذلك كذلك حذف الرّاء الأولى من اقْررْن وهى مفتوحة. ثمّ نقلها إلى القاف كما قيل : فظلتم تفكهون . وهو يريد فظللتم . فأسقطت اللّام الأولى وهى مكسورة ، ثمّ نقلت كسرتها إلى الظاء وقرأ ذلك عامّة قرّاء الكوفة والبصرة وقِرْن بكسر القاف بمعنى كنّ أهل وقار وسكينة فى بيوتكن .

وقد فصّل القرطبى فى تفسيره القول فى هذا الأمر يقول[2] : قوله تعالى : وقرن : قرأ الجمهور وقرن بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها فأمّا القراءة الأولى فتحتمل وجهين أحدهما أن يكون من الوقار تقول : وَقَرَ يقر وقاراً أى سكن . والأمر

---

(١) ٣/٢٢

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٠

قِرْ وللنّساء قِرن مثل عِدْن . والوجه الثانى وهو قول المبرّد[1] أن يكون من القرار ، تقول : قررت بالمكان بفتح الرّاء أقَرّ . والأصل : أقررن بكسر الرّاء فحذفت الرّاء الأولى تخفيفا . كما قالوا فى ظللت ظِلْت . ومسست مِسْت . ونقلوا حركتها إلى القاف . واستغنى عن ألف الوصل لتحرّك القاف .... وأمّا قراءة أهل المدينة وعاصم فعلى لغة العرب (يريد بفتح القاف من : وقَرْن) قَرِرْت فى المكان إذا أقمت فيه ، بكسر الرّاء أقَرّ ، بفتح القاف من باب حَمِد يَحْمَدُ . وهى لغة أهل الحجاز . ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنّف » عن الكسائى . وهو من أجلّ مشايخه . وذكرها الزّجّاج وغيره . والأصل إقْرَرْن . حذفت الرّاء الأولى لثقل التّضعيف . وألقيت حركتها على القاف[2] فتقول قَرْن . قال الفرّاء : هو كما تقول : أحَسْتَ صاحبك ، أى هل أحسست .

روى أن عائشة رضى الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكى حتّى تبلّ خمارها تتذكر خروجها أيّام الجمل تطلب بدم عثمان[3] وروى أنّ عمّاراً قال لعائشة رضى الله عنها : إنّ الله قد أمرك أن تقرّى فى منزلك . فقالت : يا أبا اليقظان مازلت قوّالا بالحقّ . فقال : الحمد لله الّذى جعلنى كذلك على لسانك[4] وذكر أن سودة زوج المصطفى ﷺ قيل لها لم لا تحجّين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك فقالت : قد حججت واعتمرت . و أمرنى الله أن أقرّ فى بيتى . قال الرّاوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتّى أخرجت جنازتها رضوان الله عليها[5] .

وليس بخاف أنّ زوجات المصطفى ﷺ يضربن المثل الأعلى والأسوة الحسنة للنّساء المؤمنات . بقول ابن كثير[6] : وقرن فى بيوتكن أى الزمن بيوتكن فلاتخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشّرعيّة الصّلاة فى المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ : لاتمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهنّ تفلات . وفى رواية وبيوتهنّ خير

---

(١) فى الهامش جاء القول : فى نسخة : الفرّاء

(٢) يمكن أن يضاف هنا ما قيل بشأن القراءة الأولى : واستغنى عن الف الوصل لتحرّك القاف

(٣) البحر المحيط ٢٣٠/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٢٦٢

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٦١

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٢ والبحر المحيط ٢٣٠/٧

(٦) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٣

لهنّ ... عن أنس رضى الله عنه قال : جئن النّساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يارسول الله : ذهب الرّجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى . فمالنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : من قعدت ــ أو كلمة نحوها ــ منكنّ فى بيتها فإنّها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى .

لقد عرفنا فى الآية الكريمة السّابقة الطّريقة الّتى تخاطب بها المرأة الرّجال من غير المحارم ، وقد ابتدأت التعليمات بتوجيه القول الوجهة الصّحيحة ، لأن المرأة ، وهى فى عقر دارها ، من الجائز أن تضطرّ لمخاطبة الرّجال . فلزم أن يبدأ بتبين القول المعروف منه . أما وقد عرفنا الوجه الصحيح للقول خوفا من سوء فهمه وتأويله إن كان رخيما ناعما لينا غير صارم . فهل ثمة باب آخر يمكن أن تأتى منه الشرور ينبغى سده بعد أن سدّ باب الشرّ من جهة القول ؟ إن الجواب نتبينه فى سدّ الإسلام الباب الثّانى للشر فيما لو اضطرّت المرأة للخروج من بيتها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

فما معنى التبرج ؟ يقول البخارى[1] : « التبرّج أن تخرج محاسنها » وقال القرطبى[2] فى التبرج « وحقيقته إظهار ماستره أحسن. وهو مأخوذ من السعة » يقال: فى أسنانه برج إذا كانت متفرقة. قاله المبرد » والجاهلية هي الفترة السّابقة على الإسلام . أخذت من الجهل بمعنى السفه والطيش والحميّة . وإنما قيل : الأولى ، لأنه يقال لكلّ متقدّم ومتقدّمة أوّل وأولى . وتأويله أنهم تقدموا على أمّة محمّد ﷺ ، فهم أولى ، وهم أوّل من أمّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[3] « قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنّه أشار للجاهلية التى لحقنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهنّ فيها ، وهى ماكان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم . وكان أمر النساء دون حجاب . وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه . وليس المعنى أن ثمّ جاهلية أخرى»[4] وإنّما سجلنا هذا الرّأى بالذات ، لأنا لم نجد المرجح لأى من آراء العلماء الذين اختلفوا فى معنى الجاهلية ابتداء من عهد آدم مثلا أو نوح أو

---

(١) الصحيح ١٤٦/٦

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٦١

(٣) البحر المحيط ٢٣١/٧

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٢ وانظر النصّ نفسه فى البحر المحيط ٢٣١/٧ مع شىء من التغيير .

إبراهيم أو إدريس أو داود وسليمان عليهم السّلام[1] كما اختلفوا هل هناك جاهلية ثانية أو أخرى ؟ ومن هؤلاء من قال : إنّ الجاهليّة الأخرى ما بين عيس ومحمد عليهما الصّلاة والسّلام[2] « قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرّجال فذلك تبرّج الجاهلية »[3] وكانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرّجال[4] « قال مجاهد وقتادة : التّبرّج التبختر والتغنج والتكسر وقال مقاتل : تلقى الخمار على وجهها ولا تشدّه »[5] فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كلّه منها . وذلك التّبرّج[6] .

وتشير الآية الكريمة بعد ذلك على جهة الخصوص إلى ركنين من أركان الإسلام ، أحدهما إقامة الصّلاة . والصّلاة رمز لكلّ العبادات التى يتّجه بها العبد إلى الله تعالى مباشرة . وثانيهما إيتاء الزّكاة . والزّكاة رمز لكلّ العبادات الّتى يتّجه بها العبد إلى الله تعالى مروراً بأخيه الإنسان . قال تعالى : ﴿ **وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة ،** ﴾ . يقول أبو حيّان[7] : « أمرهنّ أمراً خاصّا بالصّلاة والزّكاة إذهما عمود الطّاعة البدنية والماليّة . ثمّ جاء بهما فى عموم الأمر بالطاعة » وواضح الجمع بين الصّلاة والزّكاة فى الآية الكريمة . وهذا موضع فى القرآن الكريم من بين اثنين وثمانين موضعا فى القرآن الكريم تمّ فيه الجمع بين الصّلاة والزّكاة[8] دليلا على أهميّة الزّكاة فى الإسلام ، بسبب هذا الرّباط الوثيق بينها وبين الصّلاة الّتى هى عمود هذا الدّين.روى البزار وأبو داود عن النّبىّ ﷺ قال : صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها . وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها . وهذا إسناد جيّد »[9] .

وقد أردف الأمر بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة بالطّاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطبرى ٤/٢٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٦١
(٢) انظر مثلاً الكشاف ٥٣٨/٢
(٣) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٣
(٤) الكشاف ٥٣٨/٢
(٥) البحر المحيط ٢٣٠/٧
(٦) تفسير ابن كثير ٤٨٣/٣ انظر الكشاف ٥٣٨/٢
(٧) البحر المحيط ٢٣١/٧
(٨) الأركان الأربعة لأبى الحسن الندوى ص ١٥٠
(٩) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٣

الكريم . قال تعالى : ﴿ **وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾ وبما أنّ الصّلاة والزّكاة تدخلان فى مقدمة الطّاعات ، فهذا دليل آخر على المنزلة العالية لهاتين العبادتين فى الإسلام . ونحن فى حقيقة الأمر أمام ما يُسَمَّى بعطف العام على الخاصّ . أمّا العامّ فالطّاعة . وأمّا الخاصّ فالصّلاة والزّكاة . وسبق أن أفاد عطف الخاصّ على العامّ فى الآية الكريمة السّابقة من السّورة الكريمة المعنى ذاته . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النّبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ فبعد الإشارة على جهة العموم إلى كلّ النّبيين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، جاء ذكر أولى العزم منهم على جهة الخصوص.وقد كان الابتداء بزعيمهم محمّد بن عبد الله ﷺ . وذلك فى القول : « ومنك » .

وإذا كانت الطّاعة فى الآية الكريمة تشمل فى المقام الأوّل الصّلاة والزّكاة ، فإنّها تشمل على جهة الخصوص ما أشارت إليه الآيات الكريمات السّابقات ، وكذلك الآيتان الكريمتان اللاحقتان بصفة خاصّة ، فنحن كنا من قبل أمام صفة الإحسان الّتى وعد الله تعالى بسببها نساء النّبىّ ﷺ بالأجر العظيم ، وأما صفة القنوت وعمل الصّالحات ، والتّقوى الّتى تتجلى أساساً فى القول المعروف والقرار فى البيوت . وإذا اضطررن إلى الخروج من البيوت يلبسن الزّى الإسلامىّ المحتشم . وأمّا الصّفات فى الآيتين الكريمتين التاليتين فكثيرة كثرة فائقة . ومنها ما جاءت الإشارة إليه من ذى قبل كما سنتبين إن شاء الله تعالى .

وإنّ الآية الكريمة ، لتحصر السّبب وتعيّن الهدف من هذه التّوجيهات القرآنية لنساء النّبىّ ﷺ . قال تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ وواضح أنّنا بصدد نفى الرّجس أوّلا وإثبات الطّهر ثانياً وكأنّ النواهى الرّئيسية الّتى نصّ عليها السّياق ، تؤدّى إلى ذهاب الرّجس عن أهل البيت ، زوجاته ﷺ فى المقام الأوّل .

وكأنّ الأوامر الّتى نصّ عليها السّياق وقد تمّ التحوّل من الأمور المرغوب عنها إلى الأمور المرغوب فيها ، تؤدّى إلى إثبات الطّهر لأهل البيت الكريم . يقول ابن

كثير[1]: « نهاهنّ أوّلا عن الشّرّ ثمّ أمرهنّ بالخير من إقامة الصّلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزّكاة وهى الإحسان إلى المخلوقين » إنّ الآية الكريمة تبين بأداة الحصر « إنّما » إرادة الله تعالى لبيت النبوة الكريم من الطّهر الكامل ، وذلك دليل ليس وراءه دليل على المنزلة الّتى خصّ بها نساء النبى ﷺ الطّيبات الطّاهرات رضوان الله تعالى عليهن أجمعين . وهى منزلة رفيعة ، تفضّل الله تعالى بها عليهنّ لارتباطهنّ الوثيق بخير خلق الله تعالى كلّهم محمد بن عبد الله ﷺ ، وللمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقهنّ . ألسن هنّ أهل بيت النبى ﷺ وقد جاء فى الآية الكريمة القول : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ ؟ بلى .

وتستطيع وراء ذلك كلّ امرأة مسلمة لله ربّ العالمين أن تعلم جيداً أنّ لها حظّها الموفور من ذهاب الرّجس ومن الطّهر ، حينما تطبق هذه التعاليم القرآنية وتتخذ مِنْ أزواج المصطفى ﷺ الطّيبات الطّاهرات الأسوة الحسنة فى طاعتهن لله تعالى وطاعة رسوله الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

وقد فسّر الرّجس بالسّوء والفحشاء[2] وقال أبو حيّان[3] : « والرّجس يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النّجاسة وعلى النقائص فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت » وقال الزّجاج : الفسق[4] « قتادة : فَهُمْ أهل البيت طهرهم الله من السّوء وخصّهم برحمة منه »[5] وقال الزّمخشرى[6] : « واستعار للذّنوب الرّجس وللتقوى الطّهر لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنّس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقى مصون كالثّوب الطّاهر . وفى هذه الاستعارة ما ينفّر أولى الألباب عمّا كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . وأهل البيت نصب على النّداء أو على المدح . وفى هذا دليل بين على أنّ نساء النبى ﷺ من أهل بيته » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٣/٣

(٢) تفسير الطبرى ٥/٢٢

(٣) البحر المحيط ٢٣١/٧

(٤) البحر المحيط ٢٣١/٧

(٥) تفسير الطبرى ٥/٢٢

(٦) الكشاف ٥٣٨/٢

« وقال : عنكم لقوله أهل . فالأهل مذكر فسماهن وإنّ كنّ إناثا باسم التذكير فلذلك صار عنكم »[1] وقال ابن كثير[2] : « وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا ، لأنهنّ سبب نزول هذه الآية » وقال أبو حيّان[3] : « واتصال واذكر بما قبله يدل على أنهن من البيت » ويقول القرطبى[4] : « معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت . وإن كان خطاباً لنساء النبى ﷺ ، فقد دخل غيرهنّ فيه بالمعنى . هذا لو لم يرد دليل يخصّ جميع النّساء . كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهنّ والانكفاف عن الخروج منها إلاّ لضرورة . على ما تقدم فى غير موضع[5] فأمر الله تعالى نساء النبى ﷺ بملازمة بيوتهن وخاطبهنّ بذلك تشريفاً لهنّ ونهاهنّ عن التبرّج وأعلم أنّه فعل الجاهلية الأولى فقال : ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى »ويقول فى موضع آخر[6] : « فيلزمن البيوت . فإن مسّت الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل[7] وتستّر تام والله الموفق » « وأهل البيت نصب على المدح قال «الزّجاج» وإن شئت على البدل . قال ويجوز الرّفع والخفض »[8] قال تعالى : ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة وأطعن الله ورسوله إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ .

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التّالية الّتى تعتبر امتداد لسابقتها فى مخاطبتها لنساء المصطفى ﷺ ، قال تعالى :﴿ **واذكرن ما يُتْلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾.

إن جملة « **واذكرن** » المعطوفة على ما سبق ، يمكن أن ننظر إليها من زوايا ثلاث :

أوّلاً : من زاوية التذكر وعدم النسيان والغفلة .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٥

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٣/٣

(٣) البحر المحيط ٢٣٢/٧

(٤) ص ٥٢٦١

(٥) يريد ماتقدّم من القرآن الكريم ومن التفسير .

(٦) ص ٢٥٦٢

(٧) التبذل ترك التزيّن والتهيّؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

(٨) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٤

ثانياً : من زاوية الذّكر على اللسان فى مجال الدّعوة إلى الله تعالى والتبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة . « فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهنّ وما يرين من أفعال النبى عليه الصّلاة والسّلام ويسمعن من أقواله حتّى يبلغن ذلك إلى الناس فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدلّ على جواز قبول خبر الواحد من الرّجال والنّساء فى الدّين »[1] .

ثالثاً : من زاوية ترجمة التذكر وعدم النسيان والغفلة إلى عمل[2] إنّ هذه المعانى الثلاثة كلها يمكن أن تفهم من جملة « واذكرن » وذلك هو المطلوب من زوجات المصطفى ﷺ .

وما المراد بآيات الله تعالى والحكمة فى القول : ﴿ واذكرن ما يُتْلى فى بيوتكنّ من آيات الله والحكمة ﴾ أما المراد بآيات الله تعالى فآيات القرآن الكريم والذكر الحكيم الّتى نزلت على أشرف الأنبياء والمرسلين فى أسمى طرق الوحى . وأمّا المراد بالحكمة فسنته وأحاديثه ﷺ[3] يقول ابن القيم[4] : « والحكمة هى سنة الرّسول ﷺ . وهى تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به فكل هذا يسمى حكمة » ويقول ابن تيمية[5] : « وأمّا الرّسول فينزل عليه وحى القرآن ووحى آخر هو الحكمة . كما قال ﷺ : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وقال حسّان بن عطيّة : كان جبريل ينزل على النبى ﷺ بالسّنّة فيعلّمه إيّاها كما يعلّمه القرآن »« قال النبى ﷺ فى الحديث المروى من طرق من حديث أبى رافع وأبى ثعلبة وأبى هريرة وغيرهم : لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه . وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه .. فبين أنّه أنزل عليه وحى آخر وهو الحكمة غير الكتاب »[6] .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٦

(٢) انظر هنا تفسير القرطبى ص ٥٢٦٦

(٣) انظر صحيح البخاري ١٤٦/٦٧ وتفسير ابن كثير ٤٨٦/٣ وتفسير الطبرى ٨/٢٢ والبحر المحيط ٢٣٢/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٢٦٥ وطريق الهجرتين ص ١١٥ والإيمان لابن تيمية ص ٣٥ وص ٣٧ .

(٤) طريق الهجرتين ص١١٥

(٥) الإيمان ص ٣٧

(٦) الإيمان لابن تيمية ص ٤٣

والآية الكريمة تشير ضمنا إلى كون القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وإلى انكبابه ﷺ على تلاوة القرآن الكريم ، واهتمامه بتبليغ ما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم وسنة مطهرة . كما أنّ الآية الكريمة تردف أمر التذكر بتبيين فضل الله تعالى على هؤلاء الزّوجات حيث إنّه ﷺ قد نزل عليه الكثير من الوحى فى بيوت زوجاته رضوان الله تعالى عليهن أجمعين دون سائر الناس » وعائشة الصّدّيقة بنت الصّدّيق رضى الله عنهما أولاهنّ بهذه النعمة وأحظاهنّ بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ؛ فإنّه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحى فى فراش امرأة سواها ، كما نصّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنّه لم يتزوج بكراً سواها ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه ﷺ ورضى الله عنها . فناسب أن تخصّص بهذه المزيّة وأن تفرد بهذه المرتبة العليّة »[1] .

وانظر إلى منزلة المرأة فى الإسلام من زاوية كونها زوجا ، وذلك فى نسبة البيوت إليهنّ لأنّ لهنّ حقاً ثابتا فيها ، ثبات حقّه ﷺ فيها . ويمكن أن تدرك تلك المنزلة حينما نقارن بين هذا التعبير « يا نساء النبى » وبين هذا التعبير ، « وقرن فى بيوتكن » « واذكرن ما يُتْلى فى بيوتكن » ويتصل بذلك حظّ المرأة من الميراث إنّه الرّبع إن لم يكن للزّوج ذرية منها أو من غيرها والثمن إن كان له ذرية .

وانظر إلى التذييل فى الآية الكريمة الّذى يرفع من منزلتهن رضوان الله تعالى عليهن عند بارئهن إذكنّ أهلاً للمسئولية وتقدير نعم الله تعالى عليهن . قال تعالى : ﴿ **إنّ الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ إنّ الله تعالى لطيف بهن إذ اختارهنّ أزواجا لأشرف خلقه الّذى أنزل عليه أشرف كتبه . خبيراً بهن حينما اصطفاهنّ زوجات لنبيه المصطفى المختار كى يأخذن قسطهن من المسئولية وحظهن من حمل الأمانة المكلفات بأدائها وتبليغها . وقد فعلن كلّهن ذلك ، رضوان الله تعالى عليهن أجمعين . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ زهاء ثلث هذا الدّين إنّما وصل عن طريق هؤلاء الزّوجات الطيبات الطّاهرات رضوان الله تعالى عليهن أجمعين « وقال عطيّة العوفى فى قوله تعالى : « **إنّ الله كان لطيفا خبيرا** » . يعنى لطيفا باستخراجها خبيرا بموضعها »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٦

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٧

« قال ابن العربى : فى هذه الآية مسألة بديعة وهى أنّ الله تعالى أمر نبيه عليه الصّلاة والسّلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدّين ، فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى النّاس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا . ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر بسرة (بنت صفوان بن نوفل ، روت عن النبى ﷺ) فى إيجاب الوضوء من مسّ الذّكر لأنّها روت ما سمعت ، وبلّغت ما وعت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرّجال ، كما قال أبو حنيفة ، على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقاص وابن عمر »[1] قال تعالى : **واذكرن ما يُتْلى فى بيوتكنّ من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا** .

وإذا كان الحديث فى الآيات الكريمات السّابقات يتجه أساسا إلى نساء النبى ﷺ ويتجه ضمنا إلى نساء المسلمين ، باعتبار نساء النبى ﷺ الأسوة الحسنة للمسلمات والمؤمنات ، فإن الآية الكريمة التالية تشمل كلّ نساء المسلمين تماماً كما تشمل كل رجال المسلمين . قال تعالى : **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما** .

وقد جاء فى سبب نزول الآية الكريمة أقوال يفهم منها كلها أنّ نزول الآية الكريمة تعميق وتأكيد للمنزلة العالية الرّفعية الّتى تحس المرأة المسلمة لله رب العالمين أنّها أهل لها . أخرج الترمذى وحسنه من طريق عكرمة عن أمّ عمارة الأنصارى أنّها أتت النبى ﷺ قالت : ما أرى كلّ شىء إلاّ للرّجال ، وما أرى النّساء يذكرن بشىء فنزلت : **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٦٦

والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[1] وأخرج الطّبرانى بسند لا بأس به عن ابن عباس قال . قالت النّساء يا رسول الله : ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت : « **إن المسلمين والمسلمات** .. الآية

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال : لما ذكر أزواج النبى ﷺ قالت النّساء : لو كان فينا خير لذكرنا . فأنزل الله : « **إن المسلمين والمسلمات** .. الآية »[2]

وقال الإمام أحمد .. حدثنا عبد الرحمن بن شيبة قال : سمعت أمّ سلمة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ تقول: قلت للنبى ﷺ: مالنا لانُذْكر فى القرآن كما يُذْكر الرّجال ؟ قالت : فلم يُرُعْنى منه ذات يوم إلاّ ونداؤه على المنبر .... يا أيُّها النّاس : إنّ الله تعالى يقول : « **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** إلى آخر الآية ، وهكذا رواه النّسائى وابن جرير[3]

ونحن نودّ أن نتدبر هذه الآية الكريمة من زاويتى نظمها ومنهجها القرآنى التّربوىّ . قال تعالى :﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات**

---

(١) لباب النقول ص ١٧٤

(٢) لباب النقول ص ١٧٤

(٣) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

والذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ .

ونحن نستطيع أن نقول ابتداءً بشأن هذا الحشد من الصّفات إنّها تبدأ بأساسها وهو الإسلام . وإنّ أركان الإسلام لمعروفة وهى شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمّدا رسول الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان وحجّ بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا . وسبق أن لاحظنا أنّ الآية الكريمة قبل السّابقة تخاطب نساء النبى ﷺ بالقول : « أقمن الصّلاة وآتين الزّكاة » يضاف إلى هذا أنّ الآية الكريمة بعد ذكرها للإسلام تذكر الإيمان وذلك فى القول : « والمؤمنين والمؤمنات » ومعروف تداخل حلقتى الإسلام والإيمان . وبناء ثانيتهما على الأولى . وتداخل درجة الإحسان معهما ، وبناؤها على سابقتيها ، كما يفهم من تعريف المصطفى ﷺ للإسلام والإيمان والإحسان . ونستطيع أن نتمثل الإحسان فى صفتين تاليتين على جهة الخصوص ، هما صفة القنوت بمعنى الطّاعة فى سكون[1] فى قوله تعالى : ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات** ﴾ وصفة الخشوع الّتى جاءت الإشارة إليها بعد ذلك فى القول : « والخاشعين والخاشعات » يقول ابن كثير[2] « الخشوع السّكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتّواضع . والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث : اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » .

وقد جاء بعد صفة القنوت صفة الصّدق فى القول : « والصّادقين والصّادقات » ويأتى على رأس قائمة الصّدق ، الصّدق مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ، وقد عرفنا أنّ هذه السّورة الكريمة أثنت على الصّادقين كثيراً لأنّهم صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، ولأنّهم صبروا فى البأساء والضراء وحين البأس ، وصفة الصّبر هى الّتى جاءت فى الآية الكريمة بعد الإشارة إلى الصّدق مباشرة « والصابرين والصّابرات » وقد جاء فى الثناء على الصادقين الصّابرين فى الآيتين الكريمتين الثالثة والعشرين والرّابعة والعشرين من السّورة الكريمة . قوله تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا . ليجزى الله**

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٨٧/٣

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٨/٣

الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيما﴾.

ويتولّد عن هذه الصّفات ويتداخل معها الخشوع الّذى أشار إليه بعد ذلك القول : « **والخاشعين والخاشعات** » وبتدبر هذه الصّفات يتبين أنّها تتعلق بالإنسان الصّادرة منه بأكثر من تعلقها بالآخرين . ويتضح هذا بوضوح من صفات الإيمان والإسلام والقنوت والصّدق والصّبر والخشوع ، ولا ينبغى أن يفهم أن الآخرين لا تتعلق بهم هذه الصّفات ولا تتجاوز إليهم . إنّها تتعلق بهم وتتجاوز إليهم بطبيعة الحال لأنّ ثمارها الشهية لا تقتصر على صحة عقيدة المسلم وحسن عبادته وسلامة سلوكه فقط ، إنّما تتجاوز ذلك إلى حسن معاملته للآخرين . ومعلوم أنّ ميدان العبادة فى الإسلام واسع . حيث إنّه يشمل كلّ الميادين بما فى ذلك ميدان المعاملة للآخرين .

فإذا تجاوزنا الصّفات السّابقة إلى الصّفات التّالية ، بيّنا أنّها بطبعها متعدّية ، وبالتّالى فإنّ أثرها على المجتمع واضح . فلنتدبر هذه الصفات فى النّسق القرآنى . قال تعالى : ﴿ **والمتصدقين والمتصدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما﴾** إنّ الصّدقة تشترط وجود المتصدق عليه . وإنّ الصّيام علاج لكثير من الأمراض . ومِنْ أهمّ آثاره على الجماعة أنه يحمل الشباب خصوصا على الطّهر والعفاف . ولهذا جاءت الإشارة إلى حفظ الفروج ، بعد الثناء على الصّائمين والصّائمات مباشرة .

وتتوّج الصّفات كلها بأهمها ، بذكر الله تعالى ذكرا كثيراً . وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة الأمر للمؤمنين بأن يذكروا الله تعالى ذكرا كثيراً . وأن يسبحوه بكرة وأصيلا . قال تعالى[1] : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا﴾.**

إن الصّلاة والزّكاة اللّتين مرّت الإشارة إليهما فى الآية الكريمة قبل السّابقة لم تأت الإشارة إليهما صراحة فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها اكتفاءً بكون نساء المؤمنين تبعا لنساء النبى ﷺ فى الأمر « وأقمن الصّلاة وآتين الزّكاة » ولتغلغل

---

(١) سورة الأحزاب ٤١ ، ٤٢

الصّلاة فى العديد من الصّفات الّتى أشارت إليها الآية الكريمة ، كالإسلام والإيمان والقنوت والصّدق والصّبر والخشوع وذكر الله تعالى ذكرا كثيرا . فالصّلاة تدخل ضمنا فى أكثر الصّفات . والزّكاة كذلك لم تذكر بصريح اللفظ إنّما ذكرت الصّدقات ، وهى أوسع معنى من الزّكاة لأنها قادرة على أن تنسحب على ركن الإسلام « الزّكاة » وعلى نوافل الصّدقات . فإذا أضفنا إلى ذلك مجىء صفات أخرى من قبل أثناء الحديث إلى نساء النبى ﷺ كالإحسان وعمل الصّالحات والقول المعروف وارتداء الزّى الإسلامى وطاعة الله ورسوله عموما وذكر ما يتلى فى بيوتهن رضوان الله تعالى عليهن من آيات الله تعالى والحكمة استطعنا أن نكوّن صورة رائعة الجمال لكلّ من المسلم والمسلمة لله ربّ العالمين . وكيف يُعْرض هذا الحشد من الصّفات ؟ فى أسلوب القرآن الكريم المعجز الّذى تذكرنا طريقة عرضه للمعانى المقنعة لكلّ عقل حصيف ، المشبعة لكلّ نفس شريفة بطريقة نزول قطرات الماء من السّماء . إنّه يتحقّق معها كلّ حقّ وخير وجمال ، وقد ختمت الآية الكريمة بالإشارة إلى أنّ أولئك الّذين تلك صفاتهم قد أعدّ الله تعالى لهم مغفرة ، لأنهم فى اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش ، من الجائز أن يقارفوا لمم الذّنوب . كما أعدّ الله تعالى أجرا عظيما هو الجنة كفاء الأعمال الصّالحة الّتى أعانهم الله تعالى على أدائها وتفضّل بقبولها منهم . وبعد هذه النظرة الأولى إلى الآية الكريمة ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى ثانية . فمع هذه النظرة الثانية إلى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصّدقين والمتصّدقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ .

لقد ابتدأت الآية الكريمة فى ترتيب الصّفات الّتى يصحّ أن يتحلى بها كلّها عباد الله تعالى الصّالحون بالإسلام . وقد أردف بالإيمان قال تعالى : « **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** » ومعروف أنّ ثمة تكاملا بين الإسلام والإيمان والإحسان وتداخلا . ومع أنّ الحديث النبوى الشريف الّذى بيّن فيه المصطفى ﷺ معنى كل من الإسلام والإيمان والإحسان ، يصحّ أن يفهم منه التداخل والتكامل

بين هذه الأمور الثلاثة ، فإنّ هذا التعريف مع أنّه يسير وفق ترتيب السّائل لهذه الأمور الثلاثة هو يصحّ أن يفهم منه كذلك أننا بصدد درجات ثلاث ، تبنى الثانية على الأولى والثالثة عليهما . هذا بالإضافة إلى تداخل هذه الحلقات الثلاث وتكاملها كما قلنا . وهذا الحديث النبوى الشّريف المتفق عليه واللفظ المسلم[1] عن : « عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتّى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه[2] . قال : يا محمد : أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله وتقيم الصّلاة وتؤتى الزّكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدّقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه . قال : صدقت . قال فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . قال : فأخبرنى عن السّاعة قال : ما المسئول عنها بأعلم من السّائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشّاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثمّ انطلق . فلبث مليّا ثمّ قال لى : يا عمر أتدرى من السّائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وبتدبّرنا لهذه الآيات الكريمات من سورة الحجرات الّتى يبيّن فيها الحقّ جلّ وعلا حقيقة المستوى الّذى وقف عنده إسلام الأعراب الّذين يدّعون الإسلام ، يتبين أنّ الإيمان يشكل مرتبة تالية فى العلوّ لمرتبة الإسلام ، رغم التّداخل بين المرتبتين والتكامل بينهما ، بحيث إنّه يصحّ أن يقال : إنّ الإيمان يشترط وجود الإسلام لأنّه يقوم عليه ، بينما لا يشترط الإسلام الإيمان ، وعليه يصحّ أن يقال : إن كلّ مؤمن

---

(١) صحيح مسلم ١٥٧/١ وفى صحيح البخارى ١٩/١

(٢) يقول الإمام النووى رحمه الله تعالى ١٥٧/١ ، « قوله : ووضع كفّيه على فخذيه . معناه أنّ الرّجل الدّاخل وضع كفيه على فخذى نفسه وجلس على هيئة المتعلم . والله أعلم » وجاء فى كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٢٨٨ : « وممّا يوضّح ذلك أنّ جبريل لمّا سأل النّبىّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان كان فى آخر الأمر بعد فرض الحجّ .. والحجّ إنما فرض سنة تسع أو عشر . وقد اتفق النّاس على أنه لم يفرض قبل ستّ من الهجرة » .

مسلم . وليس كلّ مسلم مؤمنا . ونوّد بشأن الحديث هنا عن الإسلام والإيمان ، أن نشير بل نشيد بكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية الّذى يدلّ عنوانه على فحواه . كما نودّ أن نقتبس منه الفقرات التّالية ذوات العلاقة بالمسألة الّتى نحن بصددها . يقول رحمه الله تعالى[1] : « وحقيقة الفرق أنّ الإسلام دين . والدّين مصدر دان يدين دينا : إذا خضع وذلّ . ودين الإسلام الّذى ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده . فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده وعبد معه إلها آخر ، لم يكن مسلما . ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما . والإسلام هو الاستسلام لله . وهو الخضوع له ، والعبوديّة له . هكذا قال أهل اللغة : أسلم الرّجل إذا استسلم . فالإسلام فى الأصل من باب العمل ، عمل القلب والجوارح .

وأمّا الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة . فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . والأصل فيه التّصديق والعمل تابع له . فلهذا فسر النبى ﷺ الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه . وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . وفسّر الإسلام باستسلام مخصوص هو المبانى الخمس . وهكذا فى سائر كلامه ﷺ ، يفسّر الإيمان بذلك النّوع ، ويفسر الإسلام بهذا ، وذلك النّوع أعلى . ولهذا قال النبى ﷺ : الإسلام علانية والإيمان فى القلب . فإنّ الأعمال الظّاهرة يراها النّاس . وأمّا ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحبّ وخشية ورجاء فهذا باطن . لكن له لوازم قد تدلّ عليه . واللازم لا يدلّ إلاّ إذا كان ملزوما . فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق .. ففى حديث عبدالله بن عمرو وأبى هريرة جميعاً أنّ النبى ﷺ قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه النّاس على دمائهم وأموالهم . ففسّر المسلم بأمر ظاهر ، وهو سلامة النّاس منه . وفسّر المؤمن بأمر باطن ، وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم . وهذه الصّفة أعلى من تلك . فإنّ من كان مأموناً سلم النّاس منه . وليس كلّ من سلموا منه يكون مأمونا . فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه ، خوفا أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة ، لا لإيمان فى قلبه .

---

(١) الإيمان ص ٢٤٩ - ٢٥١